● هنري جايمز ●

الروائي العالمي

الذي دعم أسس الليبرالية في الأدب

د . طارق مصلح

يعتبر هنري جايمز Henry James (١٨٤٣ - ١٩١٦) الكاتب الاميركي الذي حصل فيما بعد على الجنسية البريطانية - من اعظم الكتاب العالميين القلائل الذين يتميزون بغزارة الانتاج . كتب جايمز عددا كبيرا من الروائيات والمسرحيات والكتب النقدية ولا سيما عن فن الرواية . ولا شك ان اهم انتاجه ينحصر في الرواية ، ليس كروائي خلاق فحسب بل كناقد مبدع لهذا الفن . لقد طور جايمز مفهوم الرواية الحديثة في رواياته الادبية من امثال : صورة امرأة The wings Of theDove (١٨٨١) و جناحي الحمامة The Portrait ofalady (١٩٠٢) والسفراء The Ambassadors (١٩٠٣) ، وفي كتبه النقدية من امثال : " فن الرواية The Art of Fictiom (١٨٨٤) و مستقبل الرواية (١٩١٤) The Future of the Novel وفي مقدماته لرواياته وقصصه .

ولعل اهم موضوعة عالجها جايمز في رواياته وقصصه واشتهر بها موضوعة " المشهد العالمي " الذي يتمثل بالتقاء واحتكاك ممثلين عن الحضارات الانسانية المختلفة . يعتبر جايمز بالفعل الكاتب الرئيسي الذي اضفى اهمية كبيرة على هذه الموضوعة وذلك بتصوير خبرات واسعة عن مواقف توضح اساسا خصائص الحضارة الاميركية الجديدة ، عبر مواجهتها للحضارة الاوربية العريقة ، وعلى هذا الاساس فقد صنف جايمز على انه روائي مبدع يكرس فنه الرفيع ومقدرته النادرة لتصوير عادات الشعوب واللقاء التاريخي بين الحضارات وعلى الرغم من ان روايات جايمز تركز ظاهريا على احتكاك الانسان الاميركي مع الاوربيين في الربع الأخير من القرن الماضي الا ان هذه الحالة تنطبق ايضا

على الانسان بشكل عام ، وهي تمثل الى حدّما الصراع بين القديم والجديد : بين ما تمثله الحضارة الاوربية من عراقة في الادب والفن وفي العادات والتقاليد الاجتماعية وبين مايمثله الانسان الاميركي من جدة وبراءة قد تصل في بعض الامثلة الى حد السذاجة . ان روايات جايمز تعتبر قصصا غنية ومعقدة تعكس خبرات كاتبها القيمة وتعتبر الى حد ما قصصا رمزية ، بمعنى ان ممثلي موضوع " المشهد العالمي " والمشاهد الاخرى يعبرون – بالاضافة الى حقيقة المواقف التي يمثلونها – محن حقيقية انسانية عامة ..

وباستطاعة الناقد ان يرجع اهتمام جايمز بهذا الموضوع العالمي الى نشئته والى العصر الذي عاش فيه . ولا شك ان جايمز هو جزء من التراث البروتستانتي التحرري ، مثله في ذلك مثل جون ميلتون John milton ووليام بلايك William Blake ورالف والدوامرسون Ralf waldo Emerson وناثانيال هوثورن Hawthorne Nathanial ووالد جايمز نفسه . ان هذا التقليد يؤكد بشكل رئيسي على اهمية الحرية الفردية والمسؤولية الذاتية التي تتحسس من اخطار " الفاشية " التي لا تقيم وزنا للقيم الروحية . والجدير بالذكر ان هذا التقليد لا يشجع على الاعراض عن الحياة بل على العكس يحث المرء ان يتقبل الحياة على ماهي عليه وان يواجهها ويختبرها بشكل كامل . وعلى الرغم من ان كتابة جايمز لاتتميز على العموم بطابع روحي الا ان الناحية الاخلاقية في كتابته لها مضامين روحية بعيدة المدى .

ويتفق جايمز مع امرسون Emerson على اهمية الاعتماد على النفس وعلى القيمة السقراطية المتعلقة بمعرفة الذات . وعلى هذا الاساس فان على المرء – حسب هذا التقليد التحرري – ان يعرف حاجاته ورغباته الذاتية وان يعتمد الى درجة كبيرة على الدوافع التي تنبع منها . وكما هو واضح لم يكن جايمز ليعلق اهمية كبيرة على " استقامة " الانسان بالمعنى التقليدي ، وكان يؤمن بأن تطور القوة الذاتية اهم شيء يمكن للمرء ان يحققه . وعليه فكل مايسهم بتطوير هذه القوة الكامنة في النفس البشرية يعتبر شيئا جيدا ، وبالمثل كل ما يعيقها يعتبر شرا مستطيرا .

وكما هي الحال عند اسلافه التحرريين في عصر النهضة واتباعه الليبراليين في القرن العشرين فان جايمز يرى ايضا ان معوقات تطور الانسان تكاد تنحصر في القوانين المختلفة التي اوجدها الانسان والتي فرضت انماطا صارمة من السلوك ، ولذلك يشمل التقاليد التاريخية والاعراف الاجتماعية والانظمة الاخلاقية المتزمتة : ان اكثر ماكان يغضب جايمز هو صوت الواجب بشكله التقليدي المتحجر . ومن هذا المنطلق كان جايمز يظهر شخصياته " السيئة " في قصصه على انها تتدخل بشكل ارادي في حياة الاخرين وبالتالي تعيق تطور الشخصيات الرئيسية التي تتطلع الى التحرر ، وهذا التطفل بنظر جايمز هو الشر بعينه ، وهذا النوع من السلوك يكون احيانا ناجما عن نية طيبة او عن رغبة جامحة في المرء " لمساعدة " الاخرين بمناسبة او غير مناسبة . ولكن العواقب الوخيمة تبقى هي هي ، وهذه الحالة الاخيرة تتمثل في احدى شخصيات جايمز المعروفة وهي المربية البائسة في رواية " دوران اللولب " The Turn of the Sorew وفي الواقع كثيرا ما يكون ابطال جايمز ضحية لسوء تقدير فهمهم لانفسهم ولقوتهم الذاتية ، فهم لايستمعون في كثير من الاحيان الى صوت ضمائرهم بل

يحاولون ان ينصاعوا الى سلطة م او واجب خارجي عن ارادتهم . وهذا النوع من السلوك " الانتحاري " الذي يتصل بانخداع الذات يحدث عادة على شكل تقدير مفرط للبراءة والذي يرجع الى رفض مسؤولية النضوج الفكري التي يحث عليها الكاتب .

فالفضيلة عند جايمز اذن تتكون من تمثل الخبرة الذاتية المتراكمة عبر مواجهة مشكلات الحياة ، وهذا مايسهل عملية معرفة الذات والثقة بها ، ويجب هنا ان يكون المرء حريصا وخاصة فيما يتعلق بقدرة الحياة على تزويدنا بكل من الخير والشر . واهم شيء بالنسبة لجايمز هو ان يتعلم الانسان كيف يتعرف على الشر من جميع جوانبه شريطة ان لا يكون ذلك وفق احكام سابقة ناتجة عن قوانين معينة ولا يجب على الانسان ، ان يعرض عن الشر بل عليه ان يواجهه ويتغلب عليه عن طريق رؤية آثاره وتجنبها وعن طريق المناعة الاخلاقية الذاتية التي يجب ان يتحلى بها كل انسان .

ان من الواضح ان جايمز يعتقد جازما ان المرء لايكون جيدا بانصياعه الى سلوك معين تقتضيه القوانين والانظمة الاجتماعية فهو يهتم بالدرجة الرئيسية بالسؤال المهم التالي : كيف يكون المرء جيداً ؟ " اكثر من اهتمامه بفعل الخير بشكل عشوائي ، فجوهر الانسان هو الذي يحظى بالاولوية عند جايمز ، والا يمكن للانسان المنافق ان يفعل الخير دون ان يكون جيدا ، وبالطبع لا يمكن الاعتماد على هذا النوع من الخير . ان جايمز ينظر الى " الوعي المتنور " على انه يفوق اضعاف اضعاف من ناحية الجودة " الضمير الحي " الذي يأسر المرء ويقلق حياته حتى اثناء فعل الخير . وهذا النوع من الاسر هو الذي اطلق عليه بلايك Blaiek تسمية " العبودية الاخلاقية " والتي تتضمن ان المرء يعرض عن عمل اشياء معينة خوفا من العقوبة عوضا عن فعل ما يريده لانه يرتأي جودة هذا الفعل .

ان اهتمام جايمز الاخلاقي كان يتجه نحو الوعي الفردي وخاصة فيما يتعلق بالصحة الاخلاقية والنفسية وذلك اعتقادا منه بان العمل " الجيد " ينبع فقط عن الانسان " الجيد " ، وكان جايمز يشعر بان الاحتكاك الانساني الناجح ينجم عن توفر مجتمع يحتوي على افراد يعرفون انفسهم ويثقون بها وبالتالي يحترمون فردية الاخرين ، وهؤلاء الناس هم الذين يمكنه ان يحبوا جيرانهم كما يحبون انفسهم . . "

وهنا يجب الاسراع الى القول بأن جايمز لم يكن بالمثالي الساذج ، فقد كان يعرف جيدا ان التقاليد والاعراف ضرورية للسير الطبيعي للمجتمع المتحضر وان الانسان مجبر على فعل العديد من الاشياء بطرق معينة من اجل امكانية الالتقاء البشري . غير ان جايمز اراد ان يحذر بانه اذا قدم الانسان نفسه كلية الى " المؤسسة الاجتماعية " فهو يفقد ذاتيته واستقلاله وشخصيته ويصبح نوعا من " الانسان الفارغ " الذي يستطيع فقط ان يعبر عن سلوكه الاجتماعي ، وكان جايمز يرى بوضوح ان الحل الوسط هو شيء اساسي ، فالقيمة المطلقة هي دائما الفرد الانساني نفسه ولكن على هذا الفرد ان يلائم الطرق المألوفة اجتماعيا لذاته بطريقة تمكنه من التعبير عن ذاته بشكل صحيح . فرفض الحل الوسط الضروري يعتبر خطيرا حينما يذعن الانسان للتقليد الاعمى بشكل كلي . وفي الواقع ان جميع روايات جايمز مكرسة بالدرجة الرئيسية لفحص

اسس العناصر التي يمكن ان يبنى عليها الجل الوسط والتي تؤيد قيمة عدم الهروب من الحياة الاجتماعية او الانغماس الكلي فيها .

ان المشكلات التي عالجها جايمز في رواياته هي الى حد بعيدمشكلات عصرنا الحاضر . فجايمز يتعاطف مع اولئك الذين يرفضون الانصياع الكلي لروابط السلطة الاجتماعية وبنفس الوقت يعرضون عن " الاوامر " الصارمة التي يمليها " الواجب " والضمير " بمعنييهماالتقليدي وهو يشاركنا دونما تحفظ في احترامنا العميق للحقوق الفردية . لاشك ان جايمز هواحد الرواد الاوائل الذين يدعون الى الحرية بمعناها الايجابي ، فرواياته تشجع على الاعتراف " بالمسؤولية " التي تتطلبها الحرية الصحيحة وعلى القبول بضرورة " الالتزام " الذي تتطلبه الحياة وهو يظهر ايضا بشكل جلي في جميع كتاباته خطر الفلسفة الاستسلامية في الحياة ، كما هي الحالة الممثلة في احدى رواياته عندما يقول احد شخوصه وهو يحتضر الكلمات التالية لحبيبته التي لا تريد الاستمرار في الحياة بدونه : " هناك في الحياة حب " . ان هذا التعبير البسيط ينطبق على جميع روايات جايمز ، فكما ان جايمز يعتبر من دعاة الحرية فهو ايضا من مناصري الحب ، لان الحرية والحب متلازمان ويدعم كل منهما الاخر ، وفي الواقع يمكن تصنيف الكثير من روايات جايمز على انها قصص حب .

وقد يبعث هذا على الظن ان جايمز قد فشل في رواياته فشلا ذريعا ، فكيف يمكن ان يقال ان جايمز يعارض الفلسفة الاستسلامية عندما ينتج ابطالا عدة في رواياته يعتبرون من الامثلة الحية لفلسفة التكران ؟ هناك كريستوفر نيومان Christopher Newman في رواية الاميركي The Americen الذي تتوفر لديه الوسيلة لينتقم لنفسه من العائلة التي تحرمه من الزواج من المرأة التي يحبها ومع ذلك يحجم عن استخدامها ، وهذا المثال ينطبق ايضا على ايزابيل كاتشر ، Isabel Archer في رواية صورة امرأة The portrait of a Lady التي تهرب من سيطرة زوجها الشرير والتي يتوفر لديها العديد من الوسائل لتحقق حريتها ولكنها ترفضها جميعا وتعود الى ذلك الزوج . وهناك مثال ثالث يتمثل بشخصية ميرتن دنشر Merton Densher في رواية جناحي الحمامة The Wings of The Dove حينما يستطيع ان يسعد حياته بان يرث مبلغا ضخما من المال او بالتمتع بالزواج من المرأة الغانية كايت كروي Kate Croy او حتى بالحصول على كليهما المال والمرأة ومع ذلك يرفض الاثنين رفضا قاطعا . وهناك ايضا العديد من الامثلة الاخرى للتي قد تدل ظاهريا على تأييد جايمز للاستسلام " للامر الواقع " . غير ان الناقد المتمعن في كل حالة من هذه الحالات يرى ان ماترفضه الشخصية الروائية ينحصر في المنفعة " المادية " بشكل مطلق . وفي الواقع ان جميع هذه الحالات تفترض ضمنيا ان الشخصية المعنية لو قبلت " المكافأة " وكان ذلك بحد ذاته نوعا من الاستسلام ويتفرد جايمز بهذه الطريقة بين كتاب عصره حين يحذر من الوثوق في المتع الفانية التي لاترضي النفس الابية الكريمة . فمن الواضح ان الجزاء يكون عادة في هذه الامثلة الاقتران بشريك مغر او بامرأة جميلة . وهنا يمكن لنا ان نثير اعتراضا ثانيا . فكيف يمكن الادعاء بأن جايمز مختص بكتابة الروايات الغرامية دون ان تقترن

هذه القصص حتى بقبلة عاطفية ؟ ان من المسلم به ان جايمز يعتبر من المحافظين بما يتعلق بحقيقة الغريزة الجنسية ، ولا شك في ان كتابته تتميز بالعفة التي تصل احيانا الى حد الافراط . غير انه يستطيع ان يميز بين الشروط الجنسي والحب الحقيقي الذي يعتمد على العامل الروحي او الميتافيزقي ، ان صح التعبير فهو يدعو قارئه ان يعتبر خطر الامتلاك الجنسي مماثلا لخطر امتلاك اي شيء آخر . وهنا يقترب جايمز في هذه الناحية من د . هـ . لورنس D.H. Lawrence فكلا الكاتبين يرى تشابها كبيرا بين عبودية الانسان الجنسية و عبوديته للمادة . غير انه على الرغم من تحفظ جايمز حول الجنس فهو يعالج آثاره في رواياته دونما حرج

فمن الناحية النفسية يعتبر جايمز حدوث الشيء اقل اهمية بكثير مما يعني هذا الحدوث . فما يعني شيء ما هو طبعا مسألة معقدة يصعب التعبير عنها بشكل دقيق وواضح .

وهنا يمكن اثارة اعتراض اهم على كتابة جايمز ، فاسلوبه ملتو وغير مباشر وقد يبدو احيانا مطنبا . فليس هو ذلك الكاتب الذي يروي قصصه بشكل واضح وصريح . ان جايمز كان يفكر كثيرا قبل ان يكتب رواياته ، وقد كتب مطولا عن الطريقة التي يجب ان تكتب بها الرواية لتكون تصويرا ممتعا للحياة . وكان يشعر بانه يجب على القصة الجيدة ان تعطيك نفس انطباع الخبرات اليومية في الحياة الواقعية ، وهذا يعني ان تكون القصة " مباشرة " دون ان تحتوي على تعليق تفسيري ، خصوصا اذا كانت هذه القصة تعالج تعقيدات الحياة وغناها وبالتالي فعلى الرواية ان تظهر Shsw عوضا عن ان تخبر Tell او تفسر Interpret ويجب ان تظهر مختلف بل وكافة الظروف المعقدة او على الاقل تبدو وكأنها تظهر ذلك ، خاصة عندما تحاول الرواية اظهار الدوافع البشرية وردود الفعل عليها . لقد كان جايمز بالفعل سابقا لعصره فيما يتعلق باهتمامه بعلم النفس ، اي بالسبب الذي يجعل الناس تسلك بطريقة معينة عوضا عن ان يهتم بما يفعله الناس فقط . فعندما يتذمر جايمز من القراء الذين يطالبون بالاكثار من عنصر " المغامرة " في الرواية - بمعنى استخدام العنف المبتذل والميلو- دراما التي تبغي الاثارة فحسب - فهو يطالب عوضا عن ذلك بالمغامرة الجنسية كموضوع اصلح للرواية الجيدة .(١)

ويرتكز جايمز في نظريته هذه على نقطتين هما ، اولا : ان على الرواية ان تظهر موضوعها بشكل درامي وتصويري . ثانيا : ان العنصر النفسي هو من حيث الاهمية مثل بقية العناصر الاخرى في كتابة الرواية ان لم يكن يفوقها اهمية . غير ان المشكلة بالنسبة للكاتب الواقعي النفسي هي ان تسيطر على قارئه ليس بواسطة الكلمات المباشرة فحسب بل بواسطة الايحاءات المناسبة التي تتطلب اختيار كلمات خاصة . ومن هنا يأتي اسلوب جايمز الملتوي وغير المباشر والذي غالبا ما يساء الظن به ، على انه اسهاب مطنب ، ان مثل هذا الاسلوب لايمكن قراءته بسهولة ، ومن الطبيعي ان تكون لقراءته ثمرة مابعدها ثمرة ، فالدقة والتعقيد " المشروع " اكثر ارضاء في الرواية الجيدة من الاسلوب المباشر ، مثلهما في ذلك مثل النكت الجيدة .

والجدير بالذكر ان الثمرة المجزية التي يقدمها جايمز لقرائه تتناسب مع الجهد المبذول من قبل القاريء . وعليه فان قصص جايمز لا تعد بالمتعة الرخيصة والسهلة : وهذا بالفعل ما ينطبق على افضل الاشياء في الحياة .



محمّد الفيتوري

أجراه محمد بن رجب

س : من هو محمد الفيتوري ؟ !

ج : قال : أنا مجرد انسان من هذه الارض .. الا أضفى على نفسي مالا أستطيع أن اتحمله .

هل يعنيك أن أقول بانني ولدت لابوين ليبيين مهاجرين ولدت خارج أرض الاجداد ، أعني ولدت في جزء ناء من تلك الخارطة العريضة وهو الجزء الغربي من السودان .

ذلك أمر لايعنيني كثيرا من هنا أحس بما يشبه الحرج وربما الاشمئزاز حتى ينعتني بعض الناس نعوتا اقليمية أو قبلية أو ما أشبه .

فأنا مجرد انسان عربي .. وبالتالي فأنا مجرد شاعر عربي ، لعلني أطمح في أن أكون شاعرا انسانيا معاصرا .

ولا أنسى أن أضيف أن ذلك الذى ولد فيجزء ناء من أرضه العربية اتيح له أن يعيش أوليات أيامه وأن يتلقى أوليات دروسه ، وأن يكتب أوليات قصائده في جزء آخر من الارض العربية وهي الاسكندرية .

ولست أدرى ما اذا كان يعنيك أن أقول بأني حملت اجازة الازهر الشريف وأنني تلقيت دروسي العليا في جامعة القاهرة واني أصدرت ديواني الاول "أغاني افريقيا" ، بينما كنت طالبا في السنة الاولى من كلية العلوم .

ولعل في ذلك سببا من أسباب الالتباس حيث يتصور الكثيرون ممن قرؤوا أشعاري الاولى أن مسافة حياتيه طويلة كانت تفصل بيني وبينهم .

أيضا .. هل من الضروري أن أقول بأني أعتبر نفسي احد الاطفال الشرعيين لذلك التراث العربي الممتد الى أبعاد التاريخ وأنني غفوت كثيرا تحت ظلال تلك الدوحة الشعرية العتيقة التي تحمل أوراقها اسماء شعراء العصور المتتالية الصعاليك، الجاهليين الاسلاميين .. وأيضا بعض أسماء المرحلة العربية المعاصرة .

وبالمناسبة أصدرت ديواني الثاني بعد انقطاع طويل عن الشعر دام عدة أعوام كان اسمه " عاشق من افريقيا " ثم تعاقبت أعمالي الشعرية " اذكريني يا افريقيا " - " البطل والثورة والمشنقة " - " سقوط دبشليم " - "معزوفة لدرويش متجول " - " اقوال شاهد اثبات " - " سلارا " - " ابتسمي حتى تمر الخيل " .

والان سوف تصدر لي مجموعة جديدة بعنوان ((عصفورة الدم)) .

وأخيرا .. هل يهمك أن أقول بأنني أقيم في بيروت واشتغل "ديبلوماسيا" في المكتب الشعبي الليبي .

س : محمد الفيتوري هو اذن ليبي الاصل سوداني المولد ،مصري المنشأ والتعليم افريقي الرؤية انه نوع من المزيج ..

فماذا فعل فيك هذا المزيج ؟

"قال وهو يستخرج الكلمات بصعوبة فائقة"

ج : أنا حصيلة دماء مختلطة ولعلي لست وحدي في ذلك .. ولقد رضعت من أثداء مختلطة ولذلك لم يكن بامكاني أن أكون غير ما أنا عليه . ولم يكن لشعري أن يكون غير ذلك الذي أبوح به أصرخ به أوغل فيه أحيانا حتى الجنون .

ولقد كنت أوثر أن لا تسألني عن ماذا صنع بي هذا المزيج .. كنت أحب أن تسألني هكذا : ماذا أورثك !!

والحق أن جيلا معذبا يعيش في دمائي جيلا سقط تحت المعاناة وجيلا آخر تضرج بدم العبودية وأجيالا مليئة بالضجيج والصخب ما زالت تتموج بداخلي حاملة بيارق التصوف الوجد والايغال في طريق الاكتشاف .. اكتشاف الاشياء ..

س : قلت له : أنت لم تقل شيئا الى حد الان فهل أنت تكتب قصيدة لم تستقم بعد لقد تحدثت عن الدماء والاجيال والتصوف فأين الجواب عن سؤالي المتعلق بمحمد الفيتوري المزيج ؟ !

ج : طيب .. أنا لم أقل شيئا .. قد يكون ذلك .. ولكني سأنقذ الموقف .. سأحكي لك قصة تتعرف عليها للمرة الاولى .. انها احدى الوثائق السرية في حياتي الخاصة .

انها الضوء الذى به فقط يمكنك أن ترى حقائق تلك الحياة الانسانية وعوالمها الغامضة .

قلت منذ قليل أنني ولدت لابوين ليبيين وابعد قليلا في ما وراء هذين الابوين لاقول لك من هما ؟

ولنبدأ بذلك الشيخ الصوفي والدى الشيخ مفتاح رجب الفيتوري خليفة خلفاء الطريقة العروسية الشاذلية صاحب الحضرة في مدينة الاسكندرية .

في بيت ذلك الرجل الذى يتقمصني الان كنت أتلصص صغيرا متطلعا بعينين فوليتين متقربا بملايين الحواس المتشوقة مستغرقا في أوزان دفه وايقاعاته العنفية وصوته الهادر المتوهج وهو يردد مدائحه الصوفية بينما المباخر تنفث روائحها وابخرتها العطرية مغطية أطراف البيارق الخضراء ووجوه المريدين المتحلقين من حوله :

ياسيدى بوراوى .. يا جلاب الجاوى ..

والان بعدما مرت هذه القصة .. أعترف بأن ذلك الشيخ هو صاحب الفضل الاول في تلك البذرة المعذبة التي تحاول أن تفي عذابها من خلالي .

الخروج من " زليطن " صغيرا .. مسيرة الالف ميل التي اقطعها على قدميه نحو أواسط افريقيا ثم نحو الشرق بمدينة الاسكندرية ..

بقي أن أشير الى الجانب الاشد مأساوية .. الى تلك المرأة السوداء العجوز التي صبت في شراييني عذابها .. كانت جدتي .. وكان اسمها زهرة .. وصوتها يقطر الان في روحي بينما كانت ترقدني في حجرها ثم تسكب فوقي شعرها الناعم المائل الى الدكنة .

انها الان تقول لي وهي تهدهدني بلكنتها العربية المكسورة :

لقد كنت صغيرة في عامي التاسع عندما خرجت مع نديدات لي لنملاء الجرار من بحر الغزال كان الوقت فجرا ،كنا

صغارا لانعلم ماذا تخبيء الايام وفجأة يخرج رجال ملثمون كانوا مختبئين وراء الكثبان فيردفني أحدهم خلف ظهره ويمضي مسرعا بدابته ثم يأخذني الى بعيد .. الى غربتي التي أنا فيها الان ..

كان جدك تاجر رقيق ليبي ،ولاني كنت جميلة فقد استأثر بي .

أنا الان زوجته وامك ابنته .

هل تعلم أن جدك كان تاجر رقيق ؟!

وتغمرني حالة من الاضطراب والرعب جدتي المخطوفة وجدى تاجر الرقيق المملوك والمالك ،العبودية والسيد أية غرابة هذه ؟ لا أفهم معناها؟! ماذا يحدث في هذا العالم ؟!

لم أكن أعى شيئا مما قالته جدتي كنت فقط أتمزق في صمت وابتلعت صراخي صغيرا ثم بحت به فيما بعد بسنين :

جبهة العبد ونعل السيد
وأنين الاسود المضطهد
تلك مأساة قرون غبرت
لم أعد أقبلها .. لم أعد
كيف يستعبد أرضى أبيض ؟
كيف يستعبد أمسي وغدى ؟
كيف يخبو عمرى في سجنه ؟
وجدار السجن من صنع يدى ؟
أنا زنجي وافريقيتي
لى . لا للاجنبي المعتدى ؟

س : محمد الفيتورى .. بماذا بحت في غير ذلك ؟!

(واصل الشاعر حديثه وكأنه لم يسمع سؤالي)
وقال :

ج : هل أقول لك بأني لم أكن أعي شيئا أكثر من الجرح الموروث اذ كان ثمة جرح ينزف في داخلي ،كنت أحس دون أن أفهمه وكانت حياتي تتفتح داخل أدخنة الحرب العالمية الثانية .

هل أوكد لك أنني لم أع شيئا ممايحدث حينذاك : مدينة الاسكندرية تتقلص على ذاتها كل ليلة خوفا من الطائرات الالمانية المغيرة .

والدى والشيوخ العجائز الذين يلتفون حوله كل مساء في بيتنا يتحدثون عن الحرب عن هتلر .. كانوا يتحدثون عن هتلر باعجاب .. ثم موسيليني .. وبقية عصبة المحور من جانب ومن جانب آخر كانت اسماء تشرشل وروزفلت واوهير وهيتو وغيرهم من مخلفات الحرب التي لا تزال أحداثها قابعة في مخيلتي الى هذه اللحظة .

وكان يعنيني من كل ذلك ما أفاجأ به من دماء حولي .

ثم لما وجدتني ذات يوم أكتب شيئا مالا أستطيع أن أسميه شعرا ثم آخذ بالهذيان ثم انكب على ذاتي .. أحاول تكراره كان ذلك هو بعض بوحي ..

مازلت أذكر تلك الشطرة الاولى لا تزال عالقة في ذاكرتي حتى الان وهي أول محاولة ساذجة أكتبها :

جاؤوا لطبرق بالعجل
أخذوها حالا بلا مهل

ومن تعاقب محاولاتي الاولية أستطيع أن أقول الان أن هما آخر يضاف الى همي الموروث هو البوح بأزمة مجتمعي الذى كنت أعيش فيه مجتمعي الغريب منذ منتصف الاربعينات حتى بداية الخمسينات .. كانت تسيطر علي فكرتان غامضتان الاولى الاحساس بجرحي ،والثانية الاحساس بواقعي .

هل أستطيع أن أدعى أنهما امتزجا فيما بعد في ذاتي وكونتهما في رؤيتي الشعرية .

كنت أتحرك من خلالهما وأرى العالم بهما .. وكأى طفل ناشيء مقدور عليه أن يكون شاعرا يوما ما كانت معاناتي تتطور وتتشكل وتمعن في البحث عن كلمة تعبر عنها ولقد ساعدتني تلك الظروف التي عشتها في بيت أبي ،ظروف الليالي المدائحية ،مناسبات " الحضرة الاسبوعية حيث الايقاعات ثم مجموعات الكتب القديمة حيث تعرفت على وجوه ،عدد ضخم من شعراء العصور العربية المختلفة .

س : كيف تحدد لنا اهتماماتك الشعرية بعيدا عن الجرح الذى ينزف منك دائما ؟!

ج : من الصعب علي أن أكون شاعرا وناقدا غير أني أستطيع أن القى بعض الضوء على مسيرتي الشعرية .

لقد كتبت قرابة /١٢/ مجموعة شعرية هناك محور أساسي تدور حوله اهتماماتي الشعرية وهو المحور الافريقي ولقد ذكرت أسبابه .

محمود أمين العالم في تقديمه لديواني الاول يقول عني .. (بالمناسبة أنا احترم هذا الناقد، كثيرا وتأثرت بآرائه كثيرا) .

قال ذات يوم عني :

" من لون بشرته ومن احساسه العميق

بالمرارة والحقد صاغ وطنا بعيدا نائيا هو افريقيا وكانت علاقته بهذا الوطن البعيد علاقة انفعالية خالصة . فلقد انتقل اليه بكافة ادواته، مشاعره الحاقدة المتوفرة ، رؤاه الحزينة الطبول المجلجلة الى جانب استعانته بعناصر محلية من الريف المصرى كالمحارث والسواقي والمناجل ولم يكن غريبا عن الريف المصرى فلقد قضى فيه سنتين اثناء الحرب العالمية الثانية ".

ذلك ما قاله في تلك الفترة وأنا أشد على يده فلقد نضجت أفكارى في ظل رأيه الذى عارضته في البداية .

ولكن ذلك كان عام ١٩٥٥ وكان يتحدث حول مجموعتي الشعرية الاولى " أغاني افريقيا " بمعنى أنه كان يتحدث عن ركيزتي الاولى لحياتي الشعرية .

وطبيعي أنني لم أكن لاتوقف عند ذلك دون أن تشملني حركة التطور الاجتماعي من حولي .

ومن ثمة بدأت أعيد النظر الى اهتماماتي الفكرية وأدواتي التعبيرية أى أنني بدأت أحاول أن أكسر قوقعتي حتى ولو كانت اكتست طابعا افريقيا شاملا .

الانتقال من الذاتية الضيقة الى الموضوعية الشاملة . غير أن ذاتيتي وموضوعيتي كانتا شيئا واحدا .

فلقد كانت جدتي هي افريقيا وكانت افريقيا هي تلك الجدة التي تعيش في دمائي .

لماذا لم أنطو على ذاتي كالاخرين لماذا اتخذت تلك المأساة الموروثة شكل المأساة العامة ؟ !!

ربما كانت الاجابة تقف الى جانبي الان .

ثم رأيتني ، وقد أخرجت رأسي من تلك الشرنقة ألمح وجها آخر للعالم من حولي هو وجه واقعي العربي الذى أنا جزء منه .

كانت النكبة الفلسطينية قد بدأت تتبلور في وعيي فلقد استطاعت الاصوات أصوات المد الثورى القومي الهادرة .. صوت عبد الناصر أن تتعمقني لاحاول أن أقول شيئا من خلال تلك الاصوات .. شيئا له علاقة بحركة الحياة من حولي .

ان مجتمعي العربي يحاول أن يتخلص من أغلاله التاريخية ، العدوان الثلاثي على مصر ، الثورات المتلاحقة الانتفاضات الكثيرة ، دوى أصوات الحياة من حولي .. ان فكرا جديدا يولد في ذاتي وأنا أحاول التعبير عنه .

هذا هو المحور الثاني الاساسي في حركتي الشعرية .

ثم أنا لا أحاول أن أعطي تحليلا لمسيرتي وللعناصر التي كونتني وللعوامل التي أثرت في ولكني ألقى بعض الاشارات . غير أن محورا أساسيا آخر ينبغي علي أن أقف عنده طويلا هو محور الحب وهو ذو تأثير عميق في حياتي وشكل مع المحورين الاخرين طاقة دافعة .

ان ثمة ناقدا واسمه منيف موسى يوفر علي معاناة الحديث عن هذا المحور فهو يقول :

(يأخذ محمد الفيتورى ديوانه ويقرأ منه ما قاله موسى منيف) :

— " ان محمد الفيتورى الذى احترق بنار الحقد والرحيل والغربة واكتوى بلهيب البغض والنقمة والثورة السوداء وعاش في الحزن والقلق وحمل مأساته صليبا طوال خمس عشرة سنة ، مأساته اللون ، استطاع أن يرتفع بمستوى عذابه وقد تطهر في أتون نار الانسانية والابداع بعد أن خاض تجارب اجتماعية وسياسية كثيرة فوعى الحياة متعاطفا مع الناس على مختلف بيئاتهم ومشاربهم ونزعاتهم ".

اذن ثمة ثلاثة مرتكزات أساسية يمكنك أن تتفق معي في تحديدها وهي المرتكز الافريقي والمرتكز العاطفي والمرتكز العربي . ولعل قارىء مجموعاتي الشعرية يستطيع أن يتأكد من ذلك وأن يتحدث عنه بأوفى مما قلت .

س : والمرأة ... ماذا كان نصيبها في شعرك ؟

ج : ليست المرأة في شعرى فقط عنصرا جوهريا يمد هذا الشعر بطاقاته وتجدده ولكنها في أشعار الاخرين أيضا ..

انني لا أتصور عملا شعريا خلا قط من رائحة امرأة في دماء الشاعر أو المبدع الحب والبغض أيضا كلاهما سيان بالنسبة الى الشاعر لحظة ابداعه لحظة تجليه لحظة احتكاكه بنار الحياة الروح والمادة ينعكسان على ذاتي بوجه مستمر بصورة مستمرة غير أني أجد نفسي في كثير من الاحيان وخاصة في مراحل شعريتي الاولى في حالة اعتراف به مثلا أنت عندما تقرأ أشعارى الاولى في " معزوفة درويش متجول " تجدني أتحدث عن المرأة من خلف ستار التوجه الصوفي .

لم أكن أجرؤ على البوح بكلمات الشوق

والوله والاحساس الوجداني في ديواني معزوفة درويش متجول .. كنت أتحدث عن امرأة بالذات وكان ذلك سنة ١٩٦٧م غير أني لم أكن أجرؤ بالتصريح لذلك جعلتها وراء ستار سميك وحاولت البوح .

قبل ذلك الديوان كنت أتحدث عن امرأة في حياتي ولكني لم أكن أستطيع البوح بها فاستترت وراء أحزاني اللزجة القديمة .

في " المعزوفة "أقول :

نقشوا اسمك في شفتي

وكانت بيروت الغجرية معشبة القدمين

يستلقى معطفها الوحشي كسولا في ظل الكتفين .

وقبعة من ريش نعام .

تقضم أطراف الاذنين

ويرقرق دمعته قلب العقد الماسي

وتسقط من فم مولاه القاسي ضحكات العام

ويمر خلال الضوء هنا .

بينما أقول في عاشق من افريقيا :

رائعة هموم عينيك الصغيرتين

حين تسألاني ما يكون ؟ !

ذلك الشاعر من يكون

ذلك المغنى الهمجي

ذلك المهرج الحزين

ذلك الذى يصبغه الجلال والذهول

كلما انحنى على جراحه

وراح يقرع الطبول

اذن فان اختفائي وراء شيء ما هو اختفائي كعاشق وراء ذلك.كان أحد ضروراتي النفسية التي ألجأ اليها حين يضطرني الحب على البوح .

غير أن هناك استدراكا وقع في حياتي الشعرية ولعل نضج تجربتي وازدحام سنواتي في عمرى واحساسا جديدا بلا اثمية الحب ولا اثمية البوح به جعلني في المرحلة الثالثة من عمرى استطيع أن أقول أنني أحب .

لعلني عبرت عن ذلك في مجموعتي الجديدة :" ابتسمي حتى تمر الخيل و " عصفورة الدم " .

س : هل تعتبر نفسك شاعر الزنجية .. يعني هل أنت " سنغور " عربي ؟!

ج : لا أستطيع أن أضع نفسي في غير قائمة الشعراء العرب وان كنت وهذه حقيقة تاريخية الشاعر العربي الوحيد الذى تبنى قضية الانسان الاسود في أربعة من أعماله الشعرية هي أعمالي الاولى المتعاقبة .

ربما يقول البعض أن هناك من تناول مأساة الانسان الاسود وصراعه ضد القوة الاستعمارية وقوى العبودية في حياته غير أن الحقيقة أن ليس هناك شاعر تناول هذه القضية بمثل ما تناولتها .

فلقد غصت باحساساتي الى واقعي النفسي والمأساوى واقع انسان متمرد انسان رافض انسان متطلع الى حياة خالية من العبودية والاستغلال لم أتحدث عنه من باب الفضول ومن باب البحث عن عنصر الهام جديد أو حتى من باب الاستعراض واثبات القدرة لقد تحدثت عنه بوصفي أحد أبناء تلك القارة المظلمة وأحد المدافعين عن انسانها ونضالاتها .

يطرأ على ذاكرتي الان أسماء أولئك الشعراء الزنوج الذين سبقوني الى احتضان قضايا الانسان الاسود مثل ايميل سيزار وسنغور ، انني أعتبر نفسي أحتضن قضية الانسان الاسود ليقف الى جانب هؤلاء .. واذا كانت أشعارى قد كتبت باللغة العربية واذا كانوا هم قد كتبوا قصائدهم بلغات أخرى فانني أحس بشرف المتحدث باللغة الاكثر التصاقا بالانسان الافريقي وهي اللغة العربية لم أتحدث بلغة محتل أو مستعمر أو أجنبي دخيل ،لقد تحدثت باحدى اللغات الإفريقية الخالصة .

س : محمد الفيتورى في تونس وفي بعض الدول العربية الاخرى يعرف من خلال مجموعتيه الشعريتين الاولى والثانية .. أو من خلال ما يكتب عنه أو من خلال بعض قصائد تنشر هنا وهناك في الجرائد والمجلات العربية فلماذا هذا الغياب في حين أن محمد الفيتورى أصدر ١٢ مجموعة شعرية ؟!!

ج : هذه الظاهرة لاتفاجئني ولا تضعف من قوة ارتباطي بشعبنا العربي في تونس ومثقفيه ،فأنا أعلم أن ظروف التمزق السائدة في الوطن العربي لاتسمح للكثير من الشعراء الحقيقيين أن يطلوا بوجوههم في غير مناطقهم ان ثمة مؤسسات اعلامية وأجهزة ثقافية متناثرة في العالم العربي ومسيطرة على امكانيات النشر هي التي تمر من خلالها اعمالنا الشعرية جميعا.. فبالرغم من أن أعمالي طبعت أكثر من عشر مرات ثمة مواقع لم تصل اليها

هذه الاعمال دونما سبب واضح وافترض أن هناك غربالا يحول دون وصول مستوى ما من الفكر والشعر والعناق الحقيقي المنعكس على روح الشاعر تجاه الآخرين ..

س : هل تغيرت في شكل الشعر الذى تكتب فيه منذ شبابك الاول ؟!

ج : ثمة ثلاث مراحل تمثلها التجربة التشكيلية في شعرى :
المرحلة الاولى وتتمثل في مجموعتي الاولى مع قليل من الاستمرارية داخل ثلاثة دواوين لاحقة وهي أني كنت ملتزما خلالها بالشكل الايقاعي القديم الموروث غير أنه ابتداء من ديواني " عاشق من افريقيا" مع تفتح وعيي على معطيات الواقع أخذت في المزاوجة بين الشكل القديم والشكل الحديث حيث أحاول أن أكتب داخل اسلوب يعطي الايقاعات العربية القديمة حقها من حيث الالتزام بالتفعيلة واحترام الناحية الموسيقية في القصيدة ليس بوصفها عملا تزينيا أو بقصد التجميل والترطيب ولكن بوصفها عنصرا جوهريا في البناء الشعرى ..
واحقاقا للحق وخلال مزاوجتى لهاتين المحاولتين كنت أهدف وبقدر من الوعي نحو شكل آخر للقصيدة العربية المعاصرة يستلهم تراثنا القديم كأرضية ثم يحول البناء فوقها بحيث تأخذ قصيدتي المعاصرة شكلها ومضمونها المعاصر .
تلك مرحلة ما زلت أمارسها فأنا مثلا أرفض الاشكال الفنية الوافدة والاساليب الشعرية المستوردة القائمة على مجرد التقليد ،يكتبها شعراء من الغرب أو من أى مكان آخر من العالم .
أنا لا أرفض الاستفادة من التراث الانساني انما أدعو اليه ولكن بدون تقليد ببغائي ...
ان أزمتنا العربية المعاضرة ومأساة العرب بحاجة ماسة الى ايقاع شعرى حياتي جديد منبثق من ذلك الواقع متطور معه متداخل فيه وهذا هو ما أحلم بالوصول اليه خلال تجاربي مع الاشكال الشعرية .

س : ما حال الشعر العربي في رأيك .. كيف تتحدث عن الشعراء الذين عاصروك وكيف ترى الشباب من الشعراء ؟!

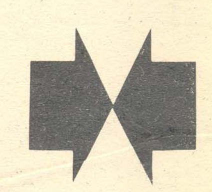
ج : أعفني من هذا السؤال .

س : هل تعبت ؟!

ج : أبدا ولكني لست ناقدا .. وأترك الجواب على ذلك السؤال الى النقاد والصحفيين وأترك الحكم على الجيل الجديد من الشعراء للقراء العرب

س : والشعر العربي في تونس ؟

ج : قرأت منه الشيء القليل . وأعرف ونور الدين صمود وجعفر ماجد والمنصف المزغني والمنصف الوهايبي .. كلهم يجلبون الاحترام رغم اختلافاتهم في الكتابة الشعرية .



صداقة نادرة

نيكولا تيكونوف

ترجمة : بوراوي عجينة

عندما كانت القطة « أميرة » صغيرة السنّ ، كان قطنا « الأشقر » يتبعها أينما ذهبت ويلهو معها .

وذات يوم ، بينما كنا ندخل بعض الإصلاحات على المنزل إذ صاح العامل الذي تعاقدنا معه على ذلك :

ـ يا للعجب ! ما زالت العين ترى . . . !

وفعلا ، رأينا مشهدا عجبا ، تملكتنا الحيرة على مصير « أميرة » الصغيرة : لقد كانت جاثمة على زيزفونة ، وقد تشبثت بأحد أغصانها ، وبالقرب منها جلس القط « الأشقر » متباهيا وبجانبه غراب ريفي قبيح المنظر ذو منقار أسود وعينين ثاقبتين .

ذهب بنا الظن في بداية الأمر أن الغراب كان يريد مهاجمة « أميرة » الصغيرة اللطيفة إلّا أن « الأشقر » كان يقف حائلا بينه وبين ذلك ؛ ثم تبادر إلى أذهاننا أن الغراب كان يريد إبعادهما عن وكره ، وطردهما من الغصن الذي كانا عليه جاثمينْ ، لكننا بالملاحظة تبينا أنهم إنما اجتمعوا لمجرد الترافق وأنه لن يحدث بينهم أي مكروه .

لقد كنا نشهد ـ في حقيقة الأمر ـ بداية قصة طويلة عجيبة .

وذات صباح ، خرجت مبكرا إلى الشرفة فرأيت على حشائش الحديقة المجاورة لنا كـائنين يتنزهان ، فبقيت مبهوتا مندهشا : ذلك أن أحد الغربان كان يتجول حذو قطنا « الأشقر » بخطى متزنة ، وكان القط يسير وهو يرنو إليه متفحصا .

كان المشهد حقا من الغرابة بحيث أنني كنت - والحق يقال - عاجزا عن تفسيره .

ولما وصل القط إلى السياج الخشبي الفاصل بين الحديقتين تسلل من تحته ، وأخذ يشير بين تربيعات الزهور ، في حين اجتاز الغراب السياج بضربة من جناحيه وحط بالقرب منه ثم استأنف 1
السير معا على الممر الذي تحيط به الزهور من الجانبين في اتجاه الباب الخارجي ، كأنهما صديقان متعاشران منذ أمد بعيد .

سارعت إلى أهل البيت أقص عليهم ذلك ، إلا أنني تبينت أنني لم أكن الوحيد الذي حضر ذلك المشهد ، فجميع ساكنيه وجميع الذين زارونا كانوا شهودا على تلك الصداقة الخارجة عن المألوف .

كان الغراب يظهر أمام منزلنا كل صباح مبكرا - حوالي الساعة السادسة فيسير ذهابا وإيابا مترقبا « الأشقر » . وكان القط يخرج إليه دون أن يصطحب معه القطة « أميرة » ؛ ثم يتجولان معا في الحديقة او يذهبان إلى الحديقة المجاورة ، وكنا نلمحهما على الزيزفونة التي جثما عليها أول مرة .

وبينما يتشبث القط بأحد الأغصان - ورأسه إلى أسفل - مبرزا مهارته في التسلق ، يشاهد الغراب حركاته البهلوانية صامتا .

ثم يستقر القط على أحد الأغصان ويأخذ الغراب في النعيق المتواصل .

فيظهر من بعيد كأن الطائر يقيم تلك الحركات الرياضية أو يحكى قصة ينصت إليها الآخر بانتباه وصبر .

وكانا يظلان على تلك الحالة زمنا طويلا ثم يستأنفان جولتهما .

كان جميع سكان مدينتنا - المصيف الصغيرة - على علم بتلك الصداقة التي كانت تربط بين « الأشقر » والغراب ، وكان الناس يقصدوننا خصيصا لمشاهدتهما ، ولم يكن القط والغراب يخشيانهم بل ولا يفكران قط في الفرار عندما يقترب أحد منهما .

ثم كان الغراب يطير محلقا ويظهر من جديد صبيحة اليوم الموالي

لكن انتهت تلك القصة نهاية مؤسفة : فقد اختفى الغراب ذات يوم . . . وجدناه مقتولا أمام السياج الخشبي . لقد كان أطفال المنزل المجاور يتدربون على الرماية ببندقية تعمل بالهواء المضغوط ، ولا بد أنهم أصابوه عندما كان يحلق تحليقا منخفضا جدا فوق رؤوسهم وهو ينعرج ليحط على حديقتنا

ترى لماذا اعتبرنا الغراب المقتول واحدا منا ؟ لأنه لم يظهر أبدا بعد ذلك إلى جانب قطنا « الأشقر » ولا في أي مكان آخر .

ثم داوم على الخروج إلى الحديقة مبكرا كل صباح بضعة أيام أخرى في انتظاره .

ولم تكن لنا أية فكرة عما كان يعانيه .

● نيكولاتيكونوف : شاعر وكاتب قصصي وناقد روسي معاصر ولد سنة 1898 . نشر عديدا من الدواوين والقصص . تحصل على عديد من الجوائز الأدبية ومنها جائزة لينين سنة 1970 لكتاباته النثرية . « الأعمدة الستة » و « قوس قزح مضعف » وهو من دعاة السلم بين الشعوب .

القصتان المعربتان من كتاب بعنوان « قصص قصيرة عجيبة » وقد ظهر سنة 1972 تحدث فيه عن بعض الحيوانات مثل الطائر والقنفذ والقط والسمكة . . . ترجم بعض فقرات منه إلى الفرنسية جون سبنوا Jean champenois من مجلة آداب سوفياتية عدد 216 سنة 1976 » . Lettres Sovietiques

موكب الوفاء

شعر : عبد المجيد التجار

شيعت بلدة دير عطية ومنطقة القلمون من يوم الجمعة في ١٩٨٣/١١/١٤ ، في موكب مهيب فقيدها الغالي الشاعر الزجلي محمد سليم دعبول ، شارك فيه ممثلوا السيد رئيس الجمهورية ورجال الدين والثقافة والرفاق البعثيون وجماهير من كافة ارجاء القلمون وقد حملته الجماهير على الاعناق الى مثواه الاخير ، ابنا بارا كريما في مقامه ورحيله ، وعلى الضريح جرى له حفل تأبين كبير يتناسب مع مكانته المرموقة في المجتمع الذي بادله الحب والوفاء من خلال موهبة شعرية مبدعة تدفقت عبر ما ينوف عن ستين عاما وقد افتتح حفل التأبين الرفيق مرعي مليسان عضو قيادة فرع ريف دمشق لحزب البعث العربي الاشتراكي ، فتحدث عن القيم الريادية لهذا الشاعر الذي واكب مسيرة وطنه ومجتمعه ، وذكر مواقفه القومية وعددها واحدة واحدة ثم تقدم الدكتور وهبي الزحيلي الاستاذ في جامعة دمشق فألقى كلمة معبرة صادقة في رثاء الفقيد أشاد فيها بالمكانة الاجتماعية التي كانت له في منطقته وبالحب النقي الصافي الذي بادله اصدقاءه واحبابه وأهله وذويه ثم قدم الرفيق مليسان الاستاذ عبد الفتاح مالك الذي ألقى كلمة طيبة باسم مدينة النبك ذكر فيها الكثير الكثير عن مواقف الفقيد من أحداث وطنه وأشاد بنجله السيد محمد ديب (ابو سليم) على ما يقدمه للمواطنين في المنطقة من خدمات جلى ثم قدم بعد ذلك اللواء الشاعر عبد المجيد النجار الصديق الحميم للفقيد ورفيق دربه ونضاله فألقى قصيدة رائعة فاضت بالوفاء والمشاعر الصادقة وكانت بحق هي وجدها موكب الوفاء ومن الافضل ان تتحدث عن نفسها من ان نستعيض في الحديث عنها ، وكانت كلمة الختام للاستاذ أحمد دعبول المستشار القانوني في مجلس الشعب الذي تحدث باسم آل الفقيد وذويه فشكر السيد الرئيس حافظ الاسد ورجال السلطة وعموم من شارك في هذا التشييع ووصف السيد أحمد دعبول باسلوب أدبي عاطفي رائع مرحلة نضالية طويلة كان فيها الفقيد موضع التقدير والاعجاب من مجتمعه ومن كل من عرفه .

وننشر فيما يلي قصيدة الشاعر عبد المجيد التجار عضو اتحاد الكتاب العرب بدمشق

حَلَّ المُصابُ وَكُلُّ ما هُوَ جارِ … مِنْ صُنْعِ رَبٍّ قادِرٍ قَهّارِ

قَهَرَ العِبادَ جَميعَهُمْ في حُكْمِهِ … ما لامْرِئٍ في الحُكْمِ أيُّ خِيارِ

اللهُ أكبرُ كيفَ يَقْهَرُنا الرَّدى … مَهْما أصَبْنا مِنْ عُلاً وَفَخارِ

فَكَأنَّما جِئْنا إلى هذي الدُّنا … صُبْحاً لِنَتْرُكَها أصيلَ نَهارِ

يا راحلاً عنّا فقد رثتكَ دروبُنا   إذ لا مفرَّ لنا من الأقدارِ
فالموتُ حقٌّ والحسابُ محتَّمٌ   ومصيرُنا رهنٌ بأمرِ الباري
والمرءُ أضعفُ من مغالبةِ الردى   والريحُ لا تقوى على الإعصارِ
كأسُ المنيّةِ لا يُردُّ ورودُه   حقٌّ بلا جدلٍ ولا استفسارِ
ومقامُنا بين الأحبّةِ عابرٌ   وديارُنا ليستْ ديارَ قرارِ

× × ×

يا شاعرَ القلمونِ كم من صرخةٍ   أطلقتَها فدعتْ إلى استنفارِ
يا قومُ هل ننسى مواكبَ بلدةٍ   رفعتْه فوقَ أكفِّها كشعارِ
باهتْ به أقرانَها فسمتْ به   وسما بها في معظمِ الأمصارِ
يا قومُ هل ننسى مجالسَه التي   زهتِ الديارُ بها وبالسُّمّارِ
مَنْ للمحافلِ بعدَ صمتِك يا أخي   فلكم صدحتَ كبلبلٍ وهزارِ
مَنْ للمعاني تعتلي صهواتِه   متمكّناً كالفارسِ المغوارِ
فتراهُ منقاداً إليكَ ليرتوي   من منهلٍ عذبٍ من الأفكارِ
قد كنتَ للقلمونِ صوتاً صارخاً   بالحقِّ في وجهِ العدوِّ الضاري
فإذا انبريتَ ففي بيانِك طاقةٌ   ترمي العدوَّ بمارجٍ من نارِ
وإذا نقدتَ فإنَّ نقدَك قصدُه   إطفاءُ نارِ الشرِّ في الأشرارِ

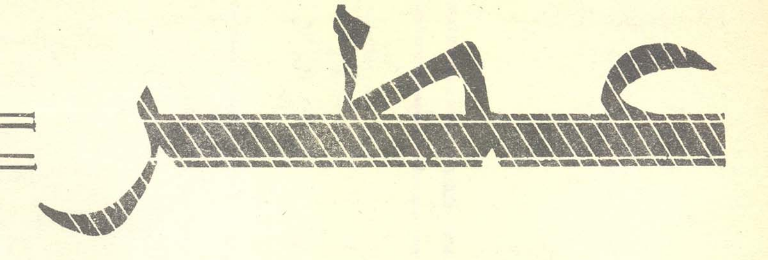
كم من لسانٍ صادقٍ في قولِه   وبيانُه أمضى من البتّارِ
قصفُ المدافعِ لا يقوِّضُ قلعةً   والسيفُ لا يرقى إلى الأسوارِ
ما لم يكنْ للفكرِ أوّلُ موقعٍ   فالرأيُ قبلَ شجاعةِ الثوّارِ
ناضلتَ في هذا المجالِ بجرأةٍ   فغدوتَ ملءَ السمعِ والأبصارِ

سيظل ذكرك في المجالس عطرها ... سيظل صوتك منبر الأحرار
إن الرجال حياتهم لا تنتهي ... بنهاية الآجال والأعمار
هم يرحلون وذكرهم بين الورى ... باقٍ تخلدهم على الأدهار
فعزاء من فقدوك أنك غرسة ... أعطت بجود أطيب الأثمار
أنجبت أشبالاً غدوا فخر الحمى ... فكأنهم روض من الأزهار
باهت بهم هذي الربوع وسجلت ... لأبي سليم أطيب الآثار
في بره لأبيه كرّم بلدة ... بالعلم والإصلاح والإعمار
بذل الجهود همة وعزيمة ... فتكللت أعماله بالغار

x x x

يا قوم إني قائل ما قاله ... كل الأنام ولست فيه أماري
ما مات من رسم الطريق لغيره ... بالعزم والتصميم والإصرار
ما مات من أبناؤه كانوا له ... ذكراً مع الآصال والأسحار
ما مات من أحبابه حفظوا له ... بين الجوارح أطيب الأخبار
فاهنأ بجنات النعيم مكرماً ... بضيافة الرحمن والأبرار
واسعد بأعلام لحقت بركبهم ... من أتقياء البلدة الأخيار
كانوا أساتذة لنا فاستعجلوا ... حرماننا من نفحة الأذكار
فارقد قرير العين في فردوسهم ... وانعم وطب نفساً بحسن جوار

دير عطية في ٤/١١/١٩٨٣ ... عبد المجيد النجار



صنعاء

شعر :
سليمان العيسى



يابنة الأسطورة الأولى .. ويالغزَ الزمان
يا التي تنفضُ عن أحجارها الدهر ..
وترميه نعاسًا عربيا
وزمانا من بقايا سدنا المنهار ..
مهزوما ، شقيًا
مله السور الذي حجرنا دهرًا .. وملّته الاغاني
يابنة الأغنية البكر .. وياظئر الزمانِ !
قادم .. أعتصر الجرح عتيقًا في لساني
مرة اكتبه شعرا .. وأهوي ألف مرة
فوقه مَيْتًا ..
واستنفر جلدي وكياني
وكمن ينفض عن عينيه سكرةْ
من غبار القبر .. أنهض
واقفاً .. عيني بعين الشمس .. أنهض
يائسًا .. ألعق يأسي في الشرايين .. وأنهض
وألبي دعوة الأسطورة الأولى .. وآتي
أحمل الأطفال ..
زادي ، فرحتي البكر ، وآتي

آهِ يا صَنعاء . . يا أماهُ . . قولي ، ماعساني
أوقظ الآن . . وأهديه الى عينيك شعرا ماعساني ؟

●●●

أمس لفتني على أهدابك السود قصيدة (١)
أمس أشعلت هنا جرحي ، وزحزحت ضبابي
عن رؤىً . . تذبحني يوما فيوما . . في اغترابي
أمس . . مثلي كنت يا صنعاءُ . . أحلامًا عنيدة
وتلاقينا . .
وحتى آخر الشفرة في العنق سنبقى نتلاقى
آخر النبضة في القلبين . . نبقى نتلاقى . .
اليتيمان . . الغريبان على مائدة الدهر الذي
صغناه شعرا . . وجمالا

ذات يوم . . يازمان الذلِ شعرا وجمالا
اليتيمان . . الغريبان ، ولميني على أهدابك السود
قصيدة
ببقايا الشفق الهارب من عينيك . .
إني أتحدى . .
بجمال الالق العائد في عينيك شعرا . .
أتحدى . .
كل أوجاعي وقهري
كل أجناس السكاكين بصدري
آهِ ياصنعاء ! لاتشكي ولكن أشكو أنا . .
تقتلني شكوى الجبان . .

●●●

قادم . . أملأ اعصابي عطرا عربيا
مرّغوهُ في السراديبِ ، ولم يبرح طريًا
خنقته الأعصر السود . .
أعيدي نشره حلوا طريًا

في دمي ، في الحلم المطعون ، هَفْهَافًا نقيا
أبحري في أرقي . .
في المدى المحترق . .
واغسليني بالطفولة
تحمل الفجر خجولة
قادم أملأ عينيَّ بما كان وصارا
أتركيني أتحسس في حناياكِ النهارا
كان عشقي . . تعرفين العشق .
أن أبحث عن خيط أسميه نهارا
فدعيني أتأمل قبلة الشمس على خديك . .
أسبحْ في الذي كان . . وصارا
يا «مغاني الشِعب» ، شِعْبِ الأهل ، كم عَذبتني
حبًا وطيبا . . يامغاني !

●●●

أعرف الخنجر في صدري . .
وأدري من أنا ؟
لم نضع ياحلوتي والعالَم الوغد نيوب حولنا
الظلام الرثُّ . . ينهي غسقه
دورة التاريخ لاتخطىء . . أسوار الدُجى محترقة
يكسر التابوت «وضاح» (٢) بسيفه
صدئًا أو صارمًا ـ لافرق ـ . .
ينهي قصة الموت بسيفه
آه ما أجمله وجهًا . . وما أشقاه !
آه . . ما أنبله حلمًا . . وما أنقاه !
الفتى الساحر والدنيا حواليه دمامة
في اليد المعروقة الثكلى تباشير قيامة
الفتى الساحر . . من أعماق هذا الوطن
من جذور الزمن . .
يحمل الفجر على إصبعه . .
يحمل فجر اليمن
صانعا من كبوة الماضي نشيد العنفوانِ

●●●

يابنة الارجوعة الأولى بناي العرب
قادم من صهوة الشام التي يروي الرواة
أنها فارسة الصحراء .. مذكنا .. ومذكان الغزاة
أبداً يهوي على أقدامها الغزو .. وينهار الغزاة
عطرك الاول في أعصابها
خمرك الأعتق في أكوابها
حين يبري السّيف هام المعتدي ..
كنا نسميه : اليماني ..
شجر يمتد من ماضٍ الى آتٍ ..
بكفيه عبير الحقب ..
وظلال عُجنت بالارض ، فهيَ الأرض ، عبر الحقب
اتفياً حيثما يمتُ ذكرى شاعرٍ ، وجه نبي
عاشقاً كنت وأبقى ..
مثلما يشقى بنو أمي بهذا الإرثِ أشقى
واحد منهم أنا ..
شهقة منهم أنا ..
يتعب العمر ، ولا تتعب في صدري الأغاني
إنها أكبر مني .. فأعينيني عليها ..
أوقدي الجمرة ياصنعا .. أعيريني بياني

●●●

كان ديواني حريقاً في صحارانا يغني
كنت من ذرات هذا الرّمل معجونا ..
وكان الرّمل مني ..
ياذرى غمدان أهلاً .. ياصِبَا نجد سلاما !

كم تنشقتُكَ في «العاصي»(٣) وغنيتُ العشياتِ غلاما !
ياشموخ النخل في بغداد ، يامُلهب قيثاري ولحني
ياعبير الارز .. ياياڤا التي صارت كلاما
نصفه قل ماتشا .. والنصفُ مازال حراما
آه يا أرضي التي تمتد بين الآهِ والماءَ يْنِ ..
يا أرضَ اليتامى !
لست أدري كم تبقّى لي من العمر .. سأفنيه غراما
أنا لم أسألكِ يا أماه عن بلوايَ .. لم أسألكِ عني
عاشقا كنت .. وأبقى
مثلما يَشقى بنو أمي بهذا الليل أشقى
ياسُرى .. ياعطشي المحرِق ، ياليلي ، سلاما !
وهياما ..
للسراديب التي تنتظر الميلاد والبرق أغني
للندى ، للعشبِ ، للاطفال ، للوهم ، أغني
للمجرّات التي تأكل احلامي وأيامي أغني
مِزْهَرى أكبرُ ياصنعاء ، ياشاعرتي ، أكبر مني
أشعليني ، وصقيع العمرِ يغزوني ، أعيرني بياني •

دمشـــق : ١٩٨٣

---

(١) قصيدة «أمشي .. وتنأين» التي أنشدت في مهرجان الشعر الخامس عشر في صنعاء .

(٢) وضاح اليمن .. وقصته معروفة ..

(٣) نهر العاصي الذي يمر بقربة الشاعر في لواء اسكندرونة

جورج شدياق

حياته وشعره

جورج يوسف شدياق مواليد حلب ١٩٤٨م درس الابتدائية في مدرسة الارض المقدسة ومنها انتقل الى اعدادية اغناطيوس الانطاكي ثم الى ثانوية القديس نيقولاوس في حلب ظهر ميوله للشعر وهو على مقاعد الدراسة الاعدادية فأخذ بقراءة الشعراء القدامى ثم بدأ بدراسة العروض حيث أجادها تماما أول عمل أدبي بسيط نشر في مجلة الجندى في قسم البراعم الواعدة وكانت قصيدة طويلة بعنوان " ثورة الجراح "

غادر سوريا في أواخر عام ١٩٦٧م وذلك لاتمام دراسته العليا في فنزويلا ولكن ولظروف معيشية قاهرة لم يستطع الصمود أمام عتوتها فأبعدته عن غايته وردته في خضم العمل الكشة من أجل تأمين لقمة العيش .

مر بظروف قاسية وصعبة ما كان منها الا أن فجرت في أعماقه البركان الشعرى المخزون وأحالته الى ثورة عارمة على المهجر والغربة ونار محرقة تلهب جذوتها كل المغريات التي كانت تحاول أن تتيه به في غياهب النسيان والضياع .

نشرت قصائده في مجلات المهجر والوطن واتصل بعدد من شعراء الوطن والمهجر أيضا لتعزيز الروابط الروحية والادبية فيما بينهم .

كتب الشعر الحديث شعر التفعيلة ونشره في عدة مجلات ثم عاد للشعر العامودى حيث وجد فيه ذاته الحقيقية .

فقد ولدته رحمها الله فكان لهذه النائبة الجديدة في حياته أكبر الاثر في مسحة الحزن التي سيطرت على أكثر من قصيدة من قصائده .

يفاخر بعروبته وبلغته ويعتبر نفسه مثل شجرة قطعت ثم غرست في غير تربتها ولكن جذورها ظلت في التربة الام تنتظر الربيع القادم . امنيته الاولى في هذا المهجر العودة الى الوطن ليعيش أيامه الباقية في الشهباء مسقط رأسه ، والثانية وحدة الامة العربية من محيطها الى خليجها لاحدّ يباعدها ولا دين يفرقها .

جذوة العروبة

حتام ننكر أصلنا العربي
ولنا الفخار بذلك النسب
والام نخفض هامنا لهم
وملاعب الهامات في الشهب
يا كبرياء النفس .. هل أفلت ؟
شمس المروءة عن حجى العرب

أصبحت أعجب من مواقفنا
حر يبيع ضميره وأبي
تتقاصر الافهام عن سبق
في زحمة الالقاب والرتب
يا دهر .. هل خارت عزائمنا
وكبت جياد العز من تعب
أوفى الاباه هم الالى كتبوا
تاريخنا بالنار واللهب
شلت يمين الحر في وطن
لم ينضِ سيفاً في رحى الغضب
هذا المطاف الى العلى عسرت
ارزاؤه .. فانهض الى الغلب
شمس الكرامة هدي امتنا
لم يخب بأرقها ولم يغب

* *

الامة العرباء واحدة
فعلام نخشى سوء منقلب
الغاصب الباغي تهددنا
أطماعه بالويل والحرب
هذا الثرى نسقيه من دمنا
لامن دماء الهوج والصخب
ان السمود أمام عتوته
أجدى من الشحناء والشغب
زرع الاذى وقف على يده
لا بارك الله يد العطب
لم نجن من أشواكه ثمرا
فالشوك يدمي كف محتطب
تلك المظاهر فيما تسكّرنا
والخمر مأتاه من العنب
أضحى التراب منال مغتصب
وغدا الثرى نهبا لمنتهب
لم ينس خد الشعب صفعتهم
مهما التقى طوعا على سبب
سيف من الفولاذ في يدهم
ونظن أن السيف من خشب

قم للجهاد .. وررو ساحته
فجهادنا أولى من الخطب
واملك - أمام الدهر - ناصية
تلهو بها - زهوا - يد العبب
وارفض بما دون النجوم سماء
... فالسماء طريق كل نبي
حاشى لمثلك أن يطأطيء
جبهته لسفاك ومغتصب
المجد بالالام نكتبه
بالاسى والذل والعتب
ما ضر لو أذكيت جذوتها
بنوافح الاصرار والدأب
الموت في الامرين خاتمة
للعابثين بها وللنجب
الوعي في الاحداث غايتنا
لبناء صرح الامة الخرب
وطني أنام الشعب عن خطر
وغفت مآربه ولم تثب
الذروة الشماء شامخة
تلهو بمفرقها يد السحب
ما للنسور تشط راحلة
وتلوذ بعد العز بالهرب
الحر ملعبه السهى ابدا
فانشد ذراها غير مضطرب
ان الفخار لدى الابي عروبته
وان تنسبه ينتسب
وطن رعي الاجداد حرمته
بالسيف والصمصام والقضب
أرسوا دعائمه على أسس
تعنو لها الاركان في الشهب
الحق مطواع لطالبه
فانهض اليه وجد في الطلب
عرب بماضينا وحاضرنا
عرب .. بما للعرب من حسب
عرب .. ورغم الخلف تجمعنا
في كل خطب وحدة الارب

عرب .. سل التاريخ يعرفنا
ان لم تصدق ...عشه عن كثب
عرب ... شد عرى تضامننا
عبر الدهور ومحنة النوب
يا من يحاول أن يفرقنا
عبثا تحل وشائج العرب
صفحات ماضينا مشرفة
جلت مآثرها عن الريب
ان العروبة رغم موقفنا
منها تظل دعائم العصب
أفعى التعصب سمها خطر
لاتقتل الافعى من الذنب
لا بد أن يأتي الزمان على
وطني ونفهم لعبة اللعب
القدس مصطبر على مضض
يمشي على الاشواك واللهب
يطوي جراحا وهي راعفة
والعرب في لهو وفي شغب
طمئن فلسطين السليبة يا
وطني وصبّر كل مر تقب
القدس سوف تعود ثانية
ويعود خير أخ .. لخير أب
اني بعيد عنك ياطني
لكنني ما حدت عن نسبي
حب العروبة في الضلوع لظى
تنثال جذوته على هدبي
أطعمت وقده من دمي أبدا
ولقد وضعته موضع الحطب
ما شذ قلبي عن محبتها
أسلو بها في الحزن والطرب
أضرمت روحي دونها طمعا
بالحب لا بالمال والنشب
من قال تبنا عن عروبتنا
إنّا وحق الله لم نتب
أبناء قومي كلنا عرب
مهما تناءينا ولم نؤب
اخلاصنا السامي لامتنا
اخلاص كل مجند عربي
نمشي على درب الكفاح معا
ونسير من قطب الى قطب
وجه العروبة نحن جبهته
كالسور دون المعقل الاشب
ما زلت - رغم الهجر - من وطن
يشتاق عودة كل مغترب
ان شئت نيل رضاه مبتعدا
فاخر بأصلك غير محتسب
وانصف هواه وصن محبته
فالحب موروث عن الادب ....
وأخلص له مادمت مغتربا .
ودع الحياة وقل: أنا عربي

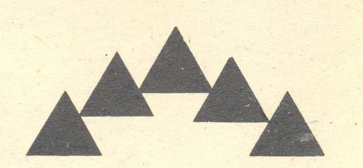
الشاعر والحياة

لي - كإنسان - يا أخي أخطاء
وطموح .. وهمة شماء
أعبر العمر بين مد وجزر
كشراع تلهو به الانواء
أكتم الدمع تحت جفني خوفا
ان يراه في مقلتي الكبرياء
وأوارى عن العواذل حزني
فهم - رغم حدبهم - اعداء
ليس لي في الحياة غير صديق
يلتقي عند نديه الشعراء
عالمي ضيق الجوانب رحب
ترتمي دون حده الارجاء
وسمائي تألق الوحي فيها
وترامت في ضفتيها سماء

اسكب الروح في الكؤوس واسقي
ندمائي ٠٠ ان أخلص الندماء
ومن الصدر أمنح الناس بعضا
من فؤادي٠٠ أومن دمي ان شاؤوا
فاحترام الحقوق أول درب
سار فيها الى الدنى الاوفياء
يا أخي ان أردت مني احتراما
كن وفيا ان الحياة وفاء
واحفظ العهد عن رضى وصفاء
فحقوق الرضى يفيها الاخاء
وحذار الغرور ذلك داء
ليس يشفيه ان تفشى دواء
انا لو عن جهل هضمت حقوقا
لك ٠٠ فارفض ٠٠ هل يستبيك الحياء

واذا شئت بعض حق فعاتب
ربما كان في العتاب الصفاء

أنت لم تزل أخي وصديقي
رغم انف الدنى ٠٠ علام الجفاء
لايضير الاخوان مكر دخيل
طبعه بين الاصدقاء عداء
فالماقي وان تمادى قذاها
لا توارى صفاءها الاقذاء
أنا لا أشتهي بقايا رغيف
يتشهاه عن طوى الفقراء
ان بعض الفتات يشبع جوعي
وهو جوع في الحالتين سواء
كلكم اخوتي وابناء أمي
صنعتنا من ضلعها حواء
ملهمي في معارج العمر قلب
ضل عن فهم قصده الجهلاء
صاح لاتحسب الحياة خلودا
أبديا ، فللحياة انتهاء
كيف نطوي في قبضة اللحم عهدا
سنه الدهر ٠٠ وارتضاه القضاء
عزة المرء أن يكون صريحا
لايداني نقاءه الصرف ماء
لم يغد يجدى في الحياة خداع
بعدما ساد عرشها الشعراء



فيلم

أتمنى أن أراه على الشاشة

نجم الدين الكيب

في تاريخنا العربي القديم والوسيط والمعاصر ، حوادث وأحداث ، وقصص وبطولات ومواقف حاسمة ، ومعارك فاصلة غيرت وجه التاريخ العربي ، وهذه الاصوات وتلك الحوادث مازالت مطوية في صفحات الكتب والمؤلفات وهي قلما تخرج من ميدان الدراسات الى ميدان التجسيد الحي بالوسائل المعاصرة ، وبالشكل الذي يسمح باعادتها كما كانت او قريبا مما كانت (١) ٠

ولعل اخطر الوسائل المعاصرة في بعث التاريخ حيا في عصرنا هذا هي (السنما) التي مازالت على الرغم من مرور اكثر من نصف قرن على دخولها الى الوطن العربي تتعثر ، وتنطلق في غير اتجاهها الصحيح ففيلم (الشباك) و (الجمهور عاوز كده) مازال يسيطر على انتاجنا السينمائي حتى طفح به الكيل ، وفي كل عام تظهر علينا سيل من الافلام التي تتمرغ في الريف ، وتشويه الواقع ، والكذب على المجتمع العربي والنقاط التافهة والرخيصة من احداثه ، وهي بهذا المفهوم يعيده كل البعد عما يجسد الفطرة العربية السليمة والواقع الاجتماعي المعاش ، ولا تصل بنا الى النهاية الا الى تسليمه رخيصة بالتلفيق القصص ، وخلق الاخداث المفتعلة والمعتمد على الاثارة وتملق الاذواق الساذجة لدى فئة متدينة الذوق من الجماهير العربية ٠ واذا شئنا التحديد اكثر في هذه الناحية فاننا نجد اكثر من ٩٠/٠ من الافلام التي نقوم بانتاجها السينمائي لجمهورنا العربي تمشي في هذا المنحدر ، وتسقط في هذا مئزلق الهاوية ؟

وما زالت الامكانيات العربية السينمائية مبعثرة جهود محدودة هنا ومحاولات بسيطة هناك ، وكان بالامكان ـ لو وجدت النية المخلصة لايجاد صيغة من صيغ التنسيق والتعاون لعلنا كنا قد خرجنا من هذا المنزلق ، وارتفعنا انتاجنا السينمائي الى مايشرفنا محليا وعربيا ودوليا ، ذلك انه مامن احد يستطيع ان ينكر الحاجة الماسة للرؤوس الاموال الضخمة لاخراج تاريخنا العربي من بين صفحات الكتب وأظافر التواليف كما يحتاج ايضا الى طاقات فنية وروح ابداعية ، لكي يظهر بصورة مشرقة كما لاحظنا في شريط (الرسالة) ونستطيع ان نضيف ايضا شريط (عمر المختار) على سبيل المثال ٠

اما الفيلم الذي نريد التحدث عنه ونتمنى ان نشاهد احداثه مجسدة على الشاشة الفضية هو قطعة عزيز وغالية من تاريخنا العربي المجيد الذي تقع احداثه الرئيسية على ارض سوريا الشقيقة ٠

(ففي العصر العباسي ازدهرت مدينة حلب ، رغم انحطاط السياسي الذي اصاب الامبرطورية العربية بتجزئتها ، وسيطرة الاعاجم عليها ، ففي عام ٨٦٨ اغتصب الحكم في سورية احمد بن طولون، وفي وقت غير بعيد من هذا التاريخ ـ ظهرت اسرة عربية من قبيلة (تغلب) تحت اسم بن حمدان ، وامتطعت من جسم

الامبراطورية العباسية مملكة امتدت من الموصل على الدجلة حتى (الرقة) على الفرات ، ثم امتدت حتى البحر وضمت كل سوريا العليا حتى جبال طوروس ، وقد كانت حلب في تلك الحقبة الصغيرة ٩٤٤ – ١٠٠٣) م على ازهى ايامها) (١)

وقد قامت هذه الدولة على التحديات التي املاها عليها وجودها كدولة حضارية متاخمة لبيزنطة ، والذي جر عليها الكثير من الاصطدامات الدامية ، (اذا كانت الحرب سجالا بين الطرفين بشكل لم يعرفه العرب من قبل ذلك ، وكانت تتميز بغزوات سريعة متبادلة تنتهي بانسحاب الطرفين بعد نهب وسلب وطرق) (ح) ولعل اهم مرحلة من مراحل هذه الدولة الحمدانية التي ظهرت على انقاض جزء من الامبراطورية العباسة هي المرحلة التي حكم فيها سيف الدولة الحمداني (٩٤٤ – ٩٦٦) ففي عهده بلغت الدولة الحمدانية اوج ازدهارها ، وذروة مجدها ، فكانت حلب عاصمة بني حمدان ملتقى القوافل التجارية الغادية والرائحة والتي ترتبط بشبكة في الطرق تربطها بأعماق آسيا والجزيرة العربية ، وحتى بيزنطة وكان سيف الدولة بشهادة العديد من المؤرخين يحكم بالعدل والقسطاس ، وكان صارما حازما يتمتع بشخصية قوية لاتأخذه الرأفة بالاعداء (وموقفه الصلب ضد التفاوض مع بيزنطة معروف في حادثة اسر ابن عمه واخت زوجته الشاعر ابي فراس الحمداني) لكنه كان في نفس الوقت يتمتع بسماحة الاسلام واخلاق النبلاء فكان رحيما كريما ودودا ، وقد اجتمعت في شخصيته هذه الخصال العربية فكان من هذه الناحية شخصية قوية ومتوازنة ومعبرة عن مرحلة التحدي الذي وجد فيه حكمه القائم وسط اعداء في الداخل ويمثلهم (البدو) واعداء في الخارج وتمثلهم بيزنطة بصورة رئيسية ؟

واننا هنا لانود ان نعرض لحروب سيف الدولة التي كان يقودها بنفسه ضد عدوته رقم واحد بيزنطة ، وانما نود ان نتوقف بكم عند واحدة منها والتي تشكل احداثها الخطوط الرئيسية لقصة سينمائية متكاملة في عناصرها الدرامية .

فكتب التاريخ والمؤرخون يحدثوننا عن معركة دامية دات رحاها بين جيش بيزنطة وجيش سيف الدولة الحمداني ، وكانت لهذه المعركة وشأنها شأن كل المعارك فقد مهدت للالتحام احدهما بالاخر ، وان لم تكن هذه المعركة هي واحدة من سلسلة المعارك التي اعتاد عليها البيزنطيون او انها ضد الحمدانيين في سورية فقد كانت معركة افتعلها برداس فوكاس ، قائد جيش بيزنطة الذي اراد – ضمن ماراد – ان يثأر لكرامة ابنه قسطنطين الذي نكب بهجر عروسته (دومينا) ليلة عقد القران حيث هربت مع حبيبها (درماس) الشخص الذي كان من عامة الشعب فضلت اياه على ابن قائد جيش بيزنطة .

ويبدو ان (دومينا) وحبيبها (درماس) قد اضطر للاقدام على الهرب من بيزنطة بعد ان ثبت لهما ان الوقوف ضد اتمام زواج (دومينا) من قسطنطين امرا مستحيلا لذلك توعدا على الهرب الى عاصمة الحمدانيين (حلب) حيث عرب غسان النصارى يعيشون هانئين مطمئنين في كنف الدولة الحمدانية .

ويروي احد المؤرخين تفاصيل القصة قائلا :
فقد وجد الحبيبان من يتعاطف معهما من الاصدقاء وييسر لهما سبل الفرار من بيزنطة ،في اليوم الذي كان المدعوون يتوافدون على قصر القائد البيزنطي (برداس فوكاس) والد العريس قسطنطين كانت (دومينا) وحبيبها (درماس) ، يشقان طريقهما الوعرة في جبال الاناضول ميممان وجهيهما شطر (حلب) عاصمة الامارة الحمدانية .

وعندما ذاع خبر هروب (دومينا) مع حبيبها (درماس) اسقط في يد عريسها المنتظر قسطنطين وكذلك ابوه القائد اللذان وجدا في هرب العروس – ليلة زفافها – بمثابة اهانة شخصية موجهة الى كبريائهما ولطمة قاسية لمكانتهما الاجتماعية ، فاضمرا الشر (لدومينا) و (درماس) وباتا يخططان للظفر بهما والانتقام لفعلتهما النكراء

وفي حلب الشهباء حيث ضمت دومينا وحبيبها (درماس) بين احضانها الناعمة وجد الحبيبان الهاربان حريتهما المهدورة في بيزنطة كما ظفرا بعطف اقارب (دومينا) من جانب امها الحلبية الاصل ، ومن سيف الدولة الحمداني الذي اهتم بقضيتهما وشملهما هو الآخر بحمايته وعطفه ومهد لهما سبيل الزواج في جو من الاختيار الحر وسط جو من الحماس الذي أذكت اريحية اهل حلب متكئين في ذلك على وقوفهما في صف قضية عادلة .

وما هي الا شهور قليلة من حادثة هروب (دومينا) ولمجيئها وحبيبها الى الامارة الحمدانية السورية حتى زحف جيش بيزنطة على حلب (٩٥٣) م بقيادة برداس فوكاس والد قسطنطين الخطيب المفجوع في هرب خطيبته (دومينا)وكان قسطنطين ضمن الجيش الزاحف على حلب

واضعا هدفه الاول الفوز برأس غريمه (درماس) والانتقام من (دومينا) المرأة التي هزأت بمركزه الاجتماعي مفضلة عليه رجل من عامة الشعب ، وكالعادة استعد الحلبيين بقيادة سيف الدولة لمواجهة جيش روما الشرقية الغازي ، وكان درماس الذي ضمه سيف الدولة الى رجال حرسه - بين اول المستعدين للقاء جيش العدو الغازي ..

وفي بلدة (ملاطية) وقريبا من نهر الفرات اشتبك الجيشان في قتال عنيف سالت فيه دماء غزيرة من الطرفين وكان بين صرعى هذه المعركة ، وكان مصرعه بيد غريمه (قسطنطين) الذي فاجأه بضربة من سيفه ، اخترقت عنقه بينما كان هذا يحاول الظفر به حيا ، ولكن قسطنطين لم ينج بنفسه [illegible] م[illegible]ق عليه فرسان بني حمدان واقتادوه اسيرا ضمن اسرى هذه الحرب الكثيرين .

وبعد ان انسحب الجيش البيزنطي مخلفا وراءه جرحاه واسراه وغنائمه ، متلقيا درسا لاينسى في المناصبة والقتال اقيمت الحفلات العامة في كامل الاراضي الحمدانية بمناسبة هذا النصر المؤزر ، على رومان بيزنطة الغزاة ، بينما كانت (دومينا) الثكلى تندب موت حبيبها وزوجها (درماس) الذي تحدت من اجله اكبر رأس في الدولة البيزنطية العتيدة ووهبته قلبها وقضا على حبه ، وقد احس سيف الدولة الحمداني - بعظم الفاجعة بموت زوجها درماس محاولا ان يواسيها ويخفف عنها فداحة الحادثة فقربها منه وادخلها في بلاطه ، وعاملها كواحدة من الاميرات اللواتي يعج بهن قصره .

غير ان قسطنطين الاسير لم تنته مأساته عند هذا الحد . صحيح انه انتقم لنفسه ولكرامته المهدورة بقتل غريمه على نحو ماذكرنا ولكن هذا لم يضع حدا نهائيا لآلامه فقد ظلت (دومينا) تسكن سويداء قلبه ، ويملأ حبها جوانحه ، ويؤرق بعدها عنه جفونه ، وهي الان - رغم ماحدث - مازالت تنعم بحريتها مشمولة بعطف صاحب البلاط الحمداني .

أما هو الذي كان يعاني القهر والمهانة من جراء تخلي (دومينا عنه) وهروبها مع من هو دونه في المستوى الاجتماعي اصبح يعاني من مرارة الاسر وتحطم القلب وان كل ماجناه من وراء حبه (لدومينا) لم يكن الا خطلا وتتويجا لمأساته معها .

ومن هنا فقد سقط في بحر من الاحزان واجترار الالام ، وبؤس المصير الذي ادى به في نهاية المطاف الى الانهيار التام ، وفقدان التوازن الشعوري والعقلي ..

ولما شاهده - سيف الدولة الحمداني على هذا الحال المؤسف اشفق عليه ، ورق له قلبه وحاول ان يقدم له من المواساة مايليق بمكانته الاجتماعية ، فخفف عنه ضيق الاسر متكئا في ذلك على سماحة خلقه وعدالة نظرته للامور ، بل وقد اتخذ قرارا باطلاق سراحه واعادته الى موطنه . لكنه احب ان يضيف الى هذه المكرمة مكرمة اخرى سأله ان يطلب من سيف الدولة الحمداني ان يحقق له رغبة تلح عليه .

ولكن (قسطنطين) لم يجد ماهو اجدر من ان يطلب (بضم الياء) من امير كريم كسيف الدولة الحمداني من ان يعيد اليه دومينا ؟
ولكن (دومينا) التي زارت خطيبها السابق قسطنطين - استجابة لطلب سيف الدولة الحمداني لم تزره من اجل مواساته والتخفيف من محنته ولكنها على الارجح - زارته لترى ماهو فيه من بؤس الحال الذي اوصلته له جموح السلطة ، وطغيان الظلم الاجتماعي والحب الميئوس منه ..

وهكذا لم يكن من المنتظر ان تخفف زيارة دومينا له - من آلامه ، وتهون من احزانه ، بل ضاعفت مأساته واطبقت على روحه فمات وهو يهذي باسم دومينا .

ولكن (دومينا) [illegible] نالت هي الاخرى نصيبها الكامل من الاحزان والندم ، وخرجت من كل ماحدث من [illegible]ات بقلب محطم ، وجناح مهيض ، ولم تعد ترى من بهجة الحياة الدنيا سوى ذكرى الحبيب الضائع في امواج الطغيان ، والزوج القتيل الذي قامر برأسه من اجل الفوز بها .. ولم تجد بعد كل ماحدث اية رباط يشدها الى الحياة الدنيا فتوجهت بقلبها الى الله ، وانقطعت لعبادة الاديرة المنتشرة في طول الشام وعرضها والتي تتمتع بحماية بني حمدان .

وهذه القصة التاريخية التي رويتها بتصرف عن احد المؤرخين المعاصرين تشتمل عناصرها الانسانية والاخلاقية على مادة جيدة لشريط سينمائي يبين للعالم سماحة العرب ، وسمو اخلاقهم ، ورفعة امجادهم ، ففي هذه القصة (الحب) و (الحرب) و (التسامح) و (النبل) و (الشهامة) وهذه العناصر تشكل مادة جيدة لفيلم جيد ، نود جميعا ان نشاهده مجسدا على الشاشة العربية .

ترى متى يحدث هذا ؟

نجم الدين غالب الكيب .



بئر الأفاعي

محمد زفزاف

توقف الجرار في الطريق التي تمر اسفل المرتقع . وراء الجرار عربة يركبها ثلاثة من المستخدمين الاقوياء الطريق تمتد وتتعرج جهة البحر . تخترق مرتفعا آخر مغطى بأشجار قصيرة . التفت حوس اوباها، بعد ان اوقف هدير المحرك. نحو الرجال الثلاثة . وجه كلامه بالضبط الى تزروالت :

– يمكنك ان تنزل انت وتخبره بذلك .

قال تزروالت :

– لايمكن ان ادخل المقهى بهذه الحالة. ان اناسا وسخين مثلي لايرتادون مثل تلك الاماكن .

– يمكن ان تخبط على الزجاج من الخارج. وعندمايخرج تقول له .

– حتى الساحة التي توجد امام المقهى لااستطيع ان اجتازها . انظر كم هي نظيفة ، سيشتمني اذا فعلت ذلك . وربما فعل بي مثلما فعل بالاخر .

لااريد ان يلقي بي في بئر الافاعي . ان لي زوجة واولادا . فوق المرتفع كانت تظهر قهوة ومطعم " سمك القرش الازرق "، مثل قلعة محروسة .

الاشجار والازهار تحيطها من كل مكان . بعض الجراسين الذين يظهرون خلف الزجاج بثياب نظيفة ومتشابهة . يتحركون بين الموائد والطاولات . على اكتافهم اشياء تشبه النياشين. وفوق صدورهم ارقام تلمع بوضوح ، ارقام مذهبة . في الجانب المقابل يظهر البحر شاسعا وممتدا ، وعلى الجرف بعض الرافعات الطويلة الاعناق ، تتحرك ببطء واستمرار . كرر حوس اوباها :

– لماذا لاتنزل لتقول له ؟

– لا استطيع .

ثم توجه الى آخر :

– اذهب وقل له انت . قل له لقد القيناه في البئر . ربما يسر بذلك كثيرا . وربما كافأنا .

– لا استطيع .. عندما يشرب يصبح وحشا .

– هل تخافونه الى هذا الحد .

– اذهب انت لتقول له . لاشك انه شرب زجاجة ويسكي في هذه الساعات القلائل .

قال حوس اوباها :

– لن يستطيع ان يؤذيني . انه جبان . اعرفه لاني اشتغلت معه اكثر من عشر سنوات . لو لم تكن السلطة بجانبه لكنت قد قتلته منذ زمان . وهو يعرف ذلك . على كل . فليدخل من يشاء الى السجن، وليرم من يشاء في بئر الافاعي . المهم ان يبتعد عن طريقي وان يدفع لي اجرتي في نهاية كل اسبوع .

ثم قفز من مقعد الجرار الى الارض . كانت قدماه تغوصان في حذائين مطاطيين اسودين . علق بهما بعض الوحل الاسود . اتجه نحو " سمك القرش الازرق " . اخذ يصعد الدرجات ، التي تحفها من الجانبين ازهار وحشائش مقصوصة بعناية فائقة . كان الثلاثة ينظرون اليه متوجسين انه شجاع حقا . الرجل الوحيد الذي يستطيع ان يرفع عينيه في وجه " عبيقة " . كل المستخدمين والمستخدمات في البساتين والحقول يرهبونه . يده طويلة مع السلطة . استطاع ان يقتل او يسجن كل من يحاول ان يعترضه او يرفع عينيه في وجهه . العامل الذي لايرضيه يأتيه الانفصال او الاقالة في اربع وعشرين ساعة . لكنه كان يدبر له حفلا خاصا ذات يوم . كانوا ينظرون بخوف الى الرجل ذي الجسم العملاق وهو يصعد الدرجات منحني القامة ، يتخطى الدرجتين تلو الدرجتين . اصبح الان وسط الساحة التي تتقدم " سمك القرش الازرق " توقف قليلا ، ثم مدد ذراعيه في الهواء ، اشعة الشمس تضرب الان زجاج القهوة . بحيث لم يعد يظهر مابداخلها . وعندما اصبح حوس اوباها امام الباب . تردد قليلا في الدخول . لكن عبيقة خرج . رآهما الثلاثة وهما يتمشيان قليلا وسط الساحة . توقفا لم يكن يظهر سوى رأسيهما واعلى الاكتاف يتحدث حوس اوباها وعبيقة يستمع بدون اهتمام . اخيرا يرفع يده ويشير جهة البحر . تبقى ذراعه ممدودة لفترة غير قصيرة . ثم تتدلى ببطء . يعاود حوس الحديث . ويظل الثلاثة يخمنون فيم يتحدثان .

قال تزروالت :

– لو كنت مكان حوس لركلني ذلك الوغد او بصق في وجهي .

اجاب الآخر :

– يستطيع ان يفعل اكثر من ذلك .

– اعرف . من يستطيع ان يلقي بانسان مسكين في بئر الافاعي ، يستطيع ان يفعل اي شيء آخر .

كل الناس يتحدثون عن البئر المليئة بالافاعي ، التي يعاقب فيها عبيقة اعداءه . كل الناس .. من سوق السبت الى ثلاث الاولاد ، الى الجرف الاصفر . اكثر من هذا ، كانت لابيه ساحة واسعة للجلد . كل مساء يجلد فلاح اوزوجته او ابنه . كان الحاكم العسكري والحاكم المدني الفرنسيان يحلو لهما احيانا ان يقوما بجولة حول تلك الساحة ، ليتفرجا على عملية الجلد تلك . يضحكان كثيرا بدون اسف ، ثم يدعوهما الى العشاء .. الخراف المشوية ، والشيخات والكسكس . وعندما ينتهي العشاء تبدأ حفلة اخرى خاصة ، تطورت الان تلك الحفلات الخاصة . عوض ان يحضرها فرنسيون ، اصبح يحضرها القايد والقايد الممتاز والعامل ، ووكيل النيابة .. لكن الساحة ، بنيت فيها زرائب واكواخ تختلط فيها العجول والناس والابقار . لم يكن الوالد يشرب . اما عبيقة فلا يكاد يصحو . ومع ذلك فثروته تنمو باستمرار .

انفصل حوس عن عبيقة ، اخذ يتدحرج الى تحت ، جهة الجرار . ينزل الدرجات اثنتين اثنتين . كان ينزلها بسهولة دون ان يلهث . حذاءاه المطاطيان يرتطمان بالحصى المنتشر في كل مكان . رأى الثلاثة مقرفصين فوق العربة .ينظرون اليه مشدوهين ، تصور انهم يقولون : " انه شجاع حقا " . لم يكن يهمه رأيهم فيه . المهم ان يؤدي له عبيقة اجرته كل نهاية اسبوع ، والا يقف في طريقه ابدا . حتى بئر الافاعي لايخيفه . لكنه قبل ان يلقى فيها . يعرف ان يستطيع ان يقتل قبيلة بأكملها . قفز فوق الجرار دون ان يتكلم . اخذ يشغل المحرك الذي استعصى اول الامر . ثم انطلق الجرار في الطريق الملتوية جهة البحر ، وفوق المرتفع . امام " سمك القرش الازرق " ، كان عبيقة ينظر اليهم وهم يبتعدون . ثم فرك يديه . ضرب الارض بقدميه وهو يضحك لوح بقبضته في السماء ، دخل القهوة من جهة المطعم ، وتوجه الى البار ، كادان يسقط مزهرية فوق احدى الموائد ، لكنها تململت وطقطقت واستوت على قاعها . لم يلتفت اليها ، نظر اليه الجرسون باشمئزاز وتقدير وخوف معا . التحق بشخصين جالسين على مقعدين مرتفعين بمحاذاة البار ، اشار للبار من دون ان يتكلم ، فأفرغ لهم ثلاثة كؤوس ويسكي .

قال عبيقة :

– المرة القادمة سوف انجح في الانتخابات النيابية .

رد احد الاثنين :

– ليس هناك من يستحق النجاح دونك .

قال الاخر :

– ان ذلك البغل نجح بالتزوير والرشوة والدعاية .

اجاب عبيقة :

- لقد فعلت كل ذلك • تصورا ان الفلاحين الكلاب الذين يشتغلون معي كانوا يقومون بالدعاية ضدي •
- هل القيت ذلك الكلب في بئر الافاعي ؟
- طبعا • سوف تنهشه هذه الليلة • وفي المرة القادمة ، لن يستطيع احد ان يقوم بالدعاية ضدي في المنطقة كلها •

رفع الكأس الى فمه • فعل الاخران نفس الشيء • يكاد البار يكون خاويا • البار من الزاوية يسمع ويفتعل انه غير منتبه للعالم الذي حوله • لكنه يعرف حكاية بئر الافاعي • كل الناس يتحدثون عنها • لكن بتحفظ كامل • يتحدثون عن عبيقة وعن ابيه • غير انهم يخافون على انفسهم • عامل الاقليم نفسه يخاف من عبيقة • لايريد مشاكل • اذا فاحت الرائحة فيجب ان تشم بتقزز في الرباط •

افرغ عبيقة الكأس في جوفه واشار للبار من مرة اخرى :
- اشربا كاسيكما •

ثم بعد ان تنفس بصعوبة :
- والله لو استقيظ الجنرال او فقير من قبره لما استطاع ان يقف في وجهي • هذه المرة سوف اعطي درسا لاولئك الخنازير الذين يقتاتون من فتاتي ثم يقومون بالدعاية ضدي في الانتخابات •

كان الاخران يهزان رأسيهما ولا يتكلمان • يحاولان ما امكن ان يكونا الى جانبه ، يؤيدانه حتى ولو اخطأ ، لانهما يقتاتان من فتاته • احدهما يدير احدى ضيعاته ، وكل سنة يحتال على نصف مردودها • اما الثاني فهو معجب به فقط لم لا ؟ ان عامل الاقليم يخافه ، وحتى الجنرال او فقير لو استيقظ من قبره لما استطاع ان يقف في وجهه •

اخذت اشعة الشمس تبلط ارضية القهوة ، غطت ايضا موائد المطعم ، لم تكن هناك سوى عائلتين اثنتين ، يبدو وانهما انهتا تناول غذائهما المتأخر ، وهما تستعدان للدفع • رأس عبيقة بدا يدور • ولكنه قلما يدور بهذه الكمية من الشراب • كان منفعلا الى حد الجنون • قال الرجل الذي عن يمينه :
- نستطيع ان تستمر في الشراب • افرض كما لو انك نجحت في الانتخابات •
قال الاخر :
الا تعتقد ان عامل الاقليم هو الذي فعلها
قال عبيقة :
- لاتقل هذا • انه لايستطيع ، لقد اكل كل خرافي • لو فعل ذلك لانفجرت بطنه مما اكل • ان جدي يستطيع ان يقف عند رأسه في المنام ، ويصيبه حتما بأذى حقيقي • هو يعرف ذلك • ولهذا فانه لا يستطيع ان يفعل شيئا من ذلك القبيل •

انصرفت العائلتان • كان عددهما كبيرا • حجبت الشمس للحظة ، ثم انتشرت من جديد اشعتها ، بلطت ارضية القهوة وموائد المطعم ، وامتدت جهة المطبخ على اليسار ، رفع البار من رأسه يتطاول بقامته ، لينظر خلف الزجاج في الساحة ، كانت سيارة رجال الدرك تحاول ان تجد لها مكانا مناسبا لتتوقف • اختار الدركي السائق موقفه امام باب القهوة اطل الضابط من نافذة السيارة ، ثم فتح الباب بسرعة وتبعه اربعة من الدركيين وفي ايديهم رشاشات • اقتحموا القهوة • رآهم عبيقة فازداد انشراحا • كان يعرف الضابط • هو ايضا اكل من لحم خرافه •
قال له عبيقة :
- عمن تفتش ايها الوغد ؟ اطرد اولئك الصعاليك وتعال لتشرب كأسا في خاطرك • ليس في المقهى انسان خطير يستحق كل هذا الاهتمام •

وقال مدير ضيعته :

- وهل يمكن ان يوجد انسان خطير حيث يوجد عبيقة ؟
- قل السي عبد القادر ياكلب •
- عفوا ، سي عبد القادر •
غير ان الضابط ظلت ملامح وجهه صارمة ، اشار بيده فاتجه الدركيون الاربعة الى عبيقة يصوبون فوهات رشاشاتهم الى جسمه اضطرب ولم يصدق اول الامر

- ماذا تفعل ؟ لاتلعب بالنار •

قال الضابط :
- لا العب ولا امزح • انها الاوامر • لقد طلب مني القاء القبض عليك •
- هكذا ياكلب ،
- الكلبة هي امك •

انقض عليه احد الدركيين ولوى ذراعيه الى الخلف ثم قيدهما • ساقه الى السيارة ثم دفعه فيها بعنف • ظل عبيقة يشتم بدون جدوى وفمه يزبد • لكن الدركيين كانت آذانهم مليئة بالطين •

محمد زفزاف



اغنية الرحيل

عارف تامر

سجا ليلي ولجَّ بي الرحيلُ
فيا قلبي بربك ماتقول؟

الا يرضيكَ عودتنا اليهم
وهل ياقلب عندك ما يحول؟

أخاف عليك من هجر طويل
فقد يودي بك الهجر الطويل

هناك نسيمهم عبر الروابي
يرف عليك هفاف عليل

يذكر بالعشيات اليتامى
وبالنغمات تبعثها التلول

مرابع للصبا عبقت وطابت
ودنيا لم يعجْ فيها ثقيل

عبرنا در بها شرقاً وغرباً
وما عتم الصباح ولا الاصيل

* * *

"سلمية" ياربيعاً في حياتي
بقلبي منك حب لا يزول

لجأت اليك تحدوني الاماني
يطوف بمهجتي الشوق النزيل

أفيء الى ظلالك في الاماسي
اميل مع الهوى انّى يميل

فليلك مترع بالشوق حان
وبدرك لايضرّ به افول

وراحك مبتغاي ولست ادري
اشهد في دنانك ام شمول

* * *

يمني باللقا غر وسيم
ويمحض بالهوى رشأ كحيل

وحين يمر سامرنا بليل
يهل البدر مغتر خجول

فينأى عن مرابعنا رقيب
ويأبى ان ينم بنا عذول

حياتي بين ندمان وعود
وشادٍ في اغانيه بخيل

وألحاني دعاء وابتهال
وتغريد وأحيانا هديل

فيا عهد الهوى لازلت حيا
يظل افقك الغصن البليل

ويا انشودة الشعراء هاتي
مدامك قبلما يدنو الرحيل

أناشيد معذبة

في ليلة الميلاد

حنا جاسر

سيّاحهمْ رقصوا في بلدتي وأدا
قرأت عن ليلة الميلاد في الصحف

فما احتفالك يا نفسي ان احتفلوا
وعربدوا فوق تشريدي ومعتقلـــــــي

الحب يولد قبل الوعد تجهضه
سنابك جنّحت بالحقد والصلـــف

والناس في الارض صمت مجرم قذر
وفي السماوات صمت غير مختلـــف

* * *

لمن سأرفع كأس العيد ان رفعت
حولي الكؤوس وماجت حلبة الطرب

يُعيّدون وقلبي في كــآبته
يوحي لوجهي ابتساما بادي الكذب

أبادل الحفل أفراحا مزيفـة
فكلما فرحوا أغرقت في كربـي

روحي مجزأة : شطر أعيش به
وآخر حطمته ذلـة العـــرب

* * *

صلّى المصلون ، ما صلّوا ، وما طلبوا ؟
هل الصلاة لها في الكون مستمع

المجد لله في عليائه وعلى (م)
الارض السلام : نشيدٌ مله السمع

لا يقمع الظلم تجويد وبسملة
ولا يدك جماح الغاصب الــورع

المجد أسلحة حمراء ثائـرة
والذل مسبحة في كف من ركعوا

عذراؤهم في بلاد الغرب شامخة
في كل بيت .. وعذرائي بلا وطـن

يقبلون يديها نعمة وأنـا
أصغى الى ندبها المكبوت يقتلني

تجول بين خيام الموت باحثة
لطفلها - حرقته النار - عن كفن
وحولها ضجة الدولار طافيـة
على النحيب .. وأكوام من العفـن!

* * *

أطفالهم شرقوا بالحلو من جشع
وبين أطفال شعبي وُزّعَ الالـــمُ

لهم من المشتهى ما يُشتهى ولنا
حرب الحجارة والادقاع والسقــم

تيتم المهد حتى من ولادتــه
واصطك يبحث عن معراجه الحَــرَمُ

دنيا من الظلم: لاشرق نلوذ به
وليس في الغرب الا "الخصم والحكم"

* * *

أجراسهم صدحتْ مجداً وفي بلدي
أصغي الى جرسي في الواد.. يختنق

غصت متاجرهم خبزا وألبسة
وفي المخيم ساد الجوع والحنــق

يا أخت! في مركز التعذيب .. لاتسلي
من الرجال .. فهم في فتنة غرقوا

هم يستبيدون .. أما أنت صابرة
وصابر معك الزيتون والحبــق

* * *

تحول الارز اشباحا مسدسة

يا للقداسة حول الارز تنتحر ..

الليلُ رعبٌ .. وأيلول تكرره
خيانة الاهل .. ياللاهل كم غدروا

يا أم! إن قطعوا ثدييك .. ان نثروا
أطفالكِ السمر أشلاء .. وان نحروا

لا تصرخي .. إن أُذْن الليل مغلقة
وابكي بصمت الى أن يطلع السحر

فالفجرُ مازال انواراً مكبلة
تحت الدنانير والخيرات والنعمِ

الارض عاقرة جدباء .. لا حَبَلٌ
في رحمها لأبيٍّ .. أو لمنتقم

والنصر يحلم بالاجيال تنقذه
فقد تمرس هذا الجيل بالسقم

والحب آت .. ولو طالت ولادته
لا يوقظ الحب الا لوعةُ الالــم!

* * *

يا أيها المشتكي مني ومن ولهي
ومن بكائي على شعب ولعت بــه

اني أرجع ما يأتي .. وليس سوى
ليل الشقاوة يأتيني بغيهبــه

هل كنت أشدو وأناشيد معذبة
لو كان شعبي في جنات ملعبــه

ماذا أغني .. ولم يسلم لنا بلد
وقادة الرأي كل في تعصبــه

* * *

الخصم يرقص في الساحات محتقِراً
تاريخ من فتحوا الدنيا ومن سادوا

في مسمعي همهمات الخيل يربطها
في الشرق والغرب أبطال وأسياد

وفي التماثيل أرواح بها قلق
كأنها من حنين الثأر أجساد

تبغي التفلّت من أصفاد معدنها
لتجبه الذل .. ان الذل أصفاد!

* * *

هنا الغروب له في مسحتي أثر
ففيه مقبرة الانوار والحلُمِ ..

الحزن حزنان: بُعدُ الاهل عن نظري
وقربُ من ليس يشجيه صدى نغمي

بريديَ الشمس .. تنبيني بكارثةٍ
في كل يوم .. فأمليها على قلمي

فيصعد الشِّعرُ أنفاساً مولّهةً
من مهجتي والاغاني من لهيب دمي!!

الولادة الجديدة

والصحو أو التجاوز والبعث الجديد

بقلم : حسين خمري

الــولادة :

" الولادة الجديدة والصحو" ديوان جديد للشاعر العربي احمد دوغان صدر في سورية بمساعدة اتحاد الكتاب العرب بدمشق ،وقد احتوى الديوان على ثلاثة عشرة قصيدة تدور كلها حول الغربة والقومية العربية

والعنوان في حد ذاته يحمل أكثر من دلالة

وهو عنوان القصيدة الاولى من الديوان .. التي تعبر عن التجاوز والتخطي تجاوز الحاضر باعتباره حالكا ولا يقف الرغبات والامال التي يطمح اليها الشاعر رفض الحاضر واستبداله بالمستقبل الذى يكون أكثر اشراقا ،كما أن الديوان عبارة عن لحظة مخاض .

ويحاول الكشف عن الولادة الجديدة أى خلق الانسان العربي من جديد وبعثه بعد أن طمرته القيود الاستعمارية وكبلته فشلت كل حركة في جسمه وأسلمت تفكيره للاوهام والخيالات المريضة . والشاعر يؤمن ايمانا عميقا بأن هذا العربي لم يمت كما خيل لمن حاولو ابادته وحذفه من الخارطة الانسانية لذلك نراه يندفع بايمان للدفاع عن هذا الانسان واثبات حضوره .

وتحرك شيء تحت رماد الصمت
وانسل السيف بحد نارى
يقدح شررا

انه يؤمن ايمانا مطلقا بأن هذا النائم لابد أن يستيقظ ذات يوم ويذيب من حوله الجليد ويحطم الاغلال فدائما تحت الرماد يشتعل قبس .

ونرى أن اللحظة عنده مشحونة بالقلق والترقب والمعاناة والالغام وهي نماء وخصب ،فاللحظة تحمل دائما معها الجديد الترقب والانتظار ... انتظار ما سيأتي وما تحمله الايام وهو من خلال اللحظة المثقلة بالمشاريع نراه يعانق الاحلام الازلية ويمارس عشقا انسانيا لا يعترف بالحدود المضروبة بين بني الجنس الواحد فهو سخي في حبه لايفرق بين الانسان مهما كانت مكانته أو ملامحه وبذلك نراه يفوق الى حب عالمي الى احتضان كل العالم لان كل الانسانية تطمح الى الحب والى السلام ولذلك نراه يزرع دروب العالم زنابق بيضاء وأشجار زيتون ويزين سماءها بالحمام الابيض :

تحب الطموح .. وصحو المساء
لتبقى المحبة أحلى وسام

من خلال هذه المحبة التي لاتعرف الحدود الانسانية والتي تحطم في طريقها قصور رجال الجمارك ،وتسخر من كل اجراءاتهم .. نراه يحلم بزمن القبلات الوردية وسماء صافية من كل الضغائن والاحقاد :

أعاني فيك الحب الازلي
وأعلم نفسي كيف يكون زمان العشق
زمان القبل الوردية

لهذا نراه يعلن العصيان على كل الانظمة الزائفة والاجهزة القمعية التي تقتل الانسان حياته .. وتلتهم لحظاته بطريقة وحشية لاتعرف الرحمة أو الاشفاق ،لذلك

يحاول استشفاف الحاضر للعبور الى المستقبل باعتباره يوفر كل الحاجات النفسية والاجتماعية التي يتوق اليهما ولا يعبر الحاضر الا عن طريق الماضي وذلك لان الحاضر زمن في حالة مخاض،وهذه الولادة العسيرة تدفعه الى الثورة على التشاؤم والتقاعس والاستسلام وخير دليل على ذلك قصيدته (حكاية العرافة) حيث يقول :

تململت أيامنا منذ البداية التي
تمخضت

عرفت أن دهرنا
حكاية قديمة

ونرى هنا الام الوضع تجشم الشاعر وهو انسان مثقف ينظر الى المجتمع والى الانسانية ،وهي غافلة عن كل الامها وأحزانها بينما هو يقف منها موقفا حد حيادي .. فهو يتألم بصمت في انتظار ولادة جديدة ولادة عصر جديد وظروف جديدة وأجهزة ومؤسسات جديدة كفيلة بأن تعوضه عن كل ما فاته وان تحققت له كل ما ينتظره غير أن هذا الموقف الحيادى ان لم نقل الانسجامي نراه يتطور فجأة ويتحول الى موقف ايجابي جدا حيث يعود اليه وعيه الحضارى وتستيقظ فيه عواطف أجداده من اباء وعزة وأنفة وكرامة ،وعدم قبول الظلم وتدفعه هذه العاطفة الى الايمان بنفسه أولا وبوجوده كعربي ثانيا :

أرفع رأسي .. أنظر هذى القلعة
... والتاريخ أمامي

التاريخ العربي كله شاهد على وجود الانسان العربي وعبقريته ومن العبث محاولة مجاهلته أو طمسه ،فالحضارة العربية خير شاهد على ذلك وتاريخه الذى برهن مرات عديدة على عبقريته ،وبطولاته .. مازال قائما لذلك نطمئن الشاعر الذى لانلومه..اندفاعه العاطفي - بأن التاريخ العربي في خير وعافية وأنه لاداعي الى الخوف عليه لان تحت الرماد تسكن النار،وأن الصمت الحاضر يشبه السكون الذى يسبق هبوب العاصفة والولادة الجديدة عند احمد دوغان نجدها تعني أكثر من ولادة ،فهي تعني ولادته الجديدة وهو يعيش غربة مكانية حيث قذفت به ظروف جديدة وبيئة مختلفة ووسط معين حاول أن يندمج فيه لكنه على غير جدوى ،بقي لحنا نشاذا في سمفونية سريعة الايقاع غريبة النغمات ولذلك نراه يحاول بعث نفسه من جديد وخلق حياته وفق الشروط الطارئة :

أحبائي ..
عرفت الدرب والاسفار
رأيت الصحو والاشراق في المنفى

وهكذا بعد هذه التجربة القاسية التي يخوضها في المنفى ينتهي به الوضع الى اقامة علاقات جديدة ومحاولة بناء ذاته وفق شروط معينة وهذه التجربة التي يخوضها مع الشروط الجديدة تتمخض عن وضع جد متفائل وهذه في حد ذاتها نتيجة ايجابية فالغربة والمنافي لم تحطم فيه انسانيته أو الامل ،ولم تكون طعم الحياة بلون آخر .. مر أو لون به رائحة العفونة وطعم الرماد ورائحة النهاية .. بل خلق نفسه من جديد وأخذ يتعامل مع هذه الحياة بدون كلفة ولا حذر ،فالغربة خلقته من جديد وكأنه لم يكن ينتظر ذلك فأذهله الاكتشاف ووصل اليه من طريق أقصر :

وأصحو يا أحبائي
وتأتيني الازاهير
أشم روائح الاتي

فالشاعر أحمد دوغان يحاول تمزيق الحجاب الشفاف الذى يفصل ما بين الحاضر والمستقبل كما يحاول اختراق الزمن والافاق ليبلغ شأوه. والديوان في مجمله عبارة عن أحاسيس قومية ومشاعر انسانية ومن خلال قصائدة تشع رغبة ملحة في بناء الانسان الجديد في عصر تكاد فيه الاجهزة القمعية أو التنافس الالي والصراع الفكرى والسياسي والاقتصادى أن يقضي على أدمية الانسان وأن يحيل البشر الى عبيد الاله ..وعبيد الاطماع والنزوات والبرجوازية والرغبات الترحيبية المراهقة !

سألتها
هي السنونو في مشارف الوداع
عن ولادة الحياة في الخريف

والولادة الجديدة عند أحمد دوغان لم تكن ناتجة عن تمخض الامه في الغربة ومواجهة المعالم الجديدة أو عن عذابه في صمته بل كانت ناتجة عن مجهود مضاعف في البذل والسفر لم يسلمه الى الحلم بالماضي والوطن والاحبة بل كان رحلة عمل وخصب :

مسافر ياغيمتي فلتمطر السماء
ولتمطر السماء !..

كما أن وجوده في العالم لم يوجد صدفة أو عبثا لان منطق الحياة يرفض الصدفة العشوائية ،بل أن الكون ،هو نظام منسق ومسير بدقة واحكام لايعرف الصدفة أو العفوية لذلك فالشاعر يرفض الصبر بدون عمل أى وهو مكتوف الايدى ينتظر حظه الذى قد يأتي وقد لايأتي وهذا الانتظار يغتال في أعماقه كل القوى النفسية ويحطم كل الازاهير ويهشم كل الامال :

بصيرتي ..
ما احتملت تكهن الامثال
فالصبر ،ثم الصبر ،ثم الموت في
الظلام

فأحمد دوغان يرفض الوعود الكاذبة الحياة المجهمة والحمل الكاذب فالصبر على تسلط الغير أو على تلسط الفقر أو الظروف المصطنعة يكاد يكون أفيونا أو مخدر الشل

كل القوى الجسدية والفكرية لذلك فخطره أشد من الخمر ومن سائر المسكرات التي تلهي البشر عن السعي وراء العيش أومحاولة تغيير الواقع المتعفن أو الجرأة على التأمل في الواقع ببصيرة نافذة وعين متفحصة ولكن سرعان ما ينفلت منه صبره ويستسلم بلذة مازوشية الى عذاباته والامه ويحرق دمعه :

لم أعد أعرف سرا للهواجس
فأصوغ الدمع
فوق أوراق الرسائل .

ومن خلال قصيدته الثانية " السفر وصرخة الرياح " نرى أن الشاعر يحاول أن يحطم المنطق أى بدء العد التنازلي فهو يتجاوز منطق الاجابه عن وجوده الى التساؤل اى مناقشة البدهيات والمسلمات التي حفظت عن ظهر قلب وذلك من خلال محاولة استيعاب اللحظة ،فالوجود عن أحمد دوغان يقرر الماهية ولكل علة معلول غير أنه يحاول أن ينظر الى القضية بعين متفلسفة :

ولادة الانسان في الحياة
يقرها الحنين

وعند تأملنا لهذين السطرين نكتشف أنهما ليسا بديهية أو مسلمة بل هما قضية فلسفية قائمة بحد ذاتها والوجه الثاني للعملة في ذلك هو أن كل انسان خاضع لماضيه لان بيض النمل لايلد النسور وقشرة الافعى تحتها يختبئ ثعبان وهذه الحتمية تؤكد على عروبة واسلام الانسان العربي فهو قد ورث العروبة والاسلام من أجداده فيجب عليه أن يكون في مستوى هذا الارث العظيم يكي لايصير حيلا بلا جذور أو انسانا ممسوح الهوية وهذا ينطبق حتى على من وجد خارج الحدود العربية لان هذه الاحاسيس فطرية في الانسان العربي والبرهنة عليهما ضرب من العبث ومضيعة للوقت .

ذاكرة المدينة .. القلق :

من يعرف أنك تقتاتين ..
.. وجوه الناس ،ولا غضب

من يعرف انك تحتملين ملوحة هذا
الانسان ..
. . ولا يأتيك الحزن

ان المدينة تسكن ذاكرة الشاعر لان فيها عرف الحب وعرف الحياة وهي مسرح للمغامرات الغرامية والاحداث هامة كانت كفيلة بأن تغير حياة الشاعر فمواجهة الشاعر للمدينة ليس بالشيء السهل أبدا .. حتى على المدني نفسه فما بالك بالقادم اليها من الريف أو الجبل فالمدينة وحش رابض يلتهم كل ما يقع في محيط وحشيته ومواجهة المدينة يعني مواجهة مشكلة وجودية مشكلة يومية ويظهر هذا بوضوح في قصيدة (أنت يمامة صدرى (أو في قصيدة (السفر في عالم الاشياء) فالمدينة وعاء يضج بالمتناقضات الاجتماعية لذلك نرى الشاعر قد وقف أمامها مأخوذا وكأنه لايصدق وهي كل يوم تستقبل وتودع لا تمل أبدا من هذه الاجراءات الجمركية الرخيصة ،كما أنها لا ترفض الحزانى ولا تضيق بهم كما أنها مسرح متعدد الادوار .. كل شارع فيه قطعة ديكور وكل راكب وراجل ممثل رغم أنفه ،ومدينة أحمد دوغان تقترب من الجمهوريات المثالية والمدن الفاضلة ،وبذلك يقف على الطرف المعاكس تقريبا احمد عبد المعطي حجوزى في ديوانه (مدينة بلا قلب) حيث يصور بعمق وصدق اصطدامه بالمدينة وعدم قدرته على التأقلم فيها :

أعرفك اليوم نباتا بريا
يتوسد عمر الكمون

ويعود يتأمل المدينة من حديد فيرى الحزن يغرق المدينة في بحر الصمت والخوف يشع من عيون البشر وكأن المدينة تحولت الى شاشة عريضة عليها مشاهد البؤس اليومي :

أتجول في الساحات الغرقى
بالقلق اليومي
أبحث عن ذاتي .. عن مرفأ أحلامي

فالمدينة التهمت ذات الشاعر ،سحقت أحلامه وبقي ضائعا في شوارعها يبحث عن ضالته المدينة حولته الى شريد ومتسكع وهو يعي ذلك تمام الوعي لكنه لايملك حق تغيير ذاته ويبدأ ممارسة لعبة خاسرة :

أتجول في احداق الناس
وأكرر نظراتي
وكأني صوفي أبحث عن كنه الاشياء

ولكن هذه اللعبة لم تدم طويلا حيث ضاقت بكل شيء فالاضواء تقيد حريته رغم منحه ببطاقة متشرد ويبدأ أحلام وملاحظات سائق في المدينة يلعن الضوء الاحمر ويلعن الضوء الاخضر :

اللون الاخضر يمنحني
السير جواز مرور لمتابعة البحث
لكن اللون الاحمر يوقفني .
يوقظ في نفسي الاحساس الكوني .

الى أين أيها البدوى تقصد؟ فرحلتك لم تنته بعد ،ومن أين لك حق المتابعة والبحث .. هل أعطيت ثمن تذكرة السفر وهل سلمتك المدينة جواز المرور :

هل أعطى ثمن السفر ؟
في هذا العالم .. يوم ولادته
.. يوم يموت .. ويوم يعود

لن يهتم أحد في المدينة بموتك كما لم يهتم أحد بولادتك في يوم من الايام فالانسان ضائع حبة رمل ملقاة على شاطئ البحر لاقرار له ولا نهاية وعندما يواجه الانسان القلق اليومي ،ويدمن عليه يحاول شغل نفسه بقراءة الوجوه المتعبة لان الضوء الاحمر مؤشر خطر في حياته ،ولاته يرغمه على العودة الى الروتين :

هذه ذاكرتي تهوى الوجوم

وتلاوين العـــذاب
وبعد تأمله يبدأ حلمه ببعث الانسان الجديد الذى لايعترف بالشارات سعيا وراء الحياة ويقيم لها وزنا واعتبارات الا لشيء واحد قد يكون الحب أو المحبة بصفة عامة :

أتصفح ذاكرة التاريخ الازلي
لارى هذا المخلوق البشرى
يجرى .. يبحث عن كل الاشياء ...
الا شـــيئا

ومظاهرة القلق تبدوا واضحة في هذا الديوان وربما تكون ناتجة عن ظروف القرية وقد يكون ذلك قلقا حضاريا أو أزمة نفسية أو فكرية ويواجه مسألة وجودية وقلقا كونيا متأزما لذلك نراه يحتج بشدة على صروف الدهر حتى يكاد يفقد وعيه :

تلاشت قصته الغيـــاب
مكالمتي بلا حـــد
وأيامي بلا عـــد

وهو في هذا المقطع يعبر عن ضياع مدمر لذلك نراه يرتد الى الوراء باستمرار ويقوم برحلة شائكة عبر مغارة الزمن ويتجلى ذلك في قصيدته الثانية وهي سابقة على الاولى من ناحية الترتيب الزمني لان الولادة تأتي في مرحلة ثانية بعض المخاض فهو رحالة لايعرف محطة وقوف :

مسافر تمدني الرياح بالمغامرة
وترقص الشموس في مواكب الرحيل

وهو مسافر ناقته لاتعرف الوقوف لكنه ما نسي أخطار الطريق ولا الاحزان لان (الحزن والانسان توأمان) :

ما نسيت ضريبة الاحزان
يدفعها الانســـان
بالحب والارهاق والالام

ويحاول أن يطهر نفسه بالاحزان لان الحزن تكفير عن الايام وهو ضرورية نفسية وينتهي الى خضوع الالام للقدر .. قصته الالام قد تكون غراقية ، فاشلة وقد تكون بفكرة مجهضة ونراه يحاول نيسان الغربة عن طريق الكتابة أو أتذكر الاهل والاحباب :

وأسال الغيوم في السمـاء
عن قصـــة الالام
يظلني وجه الوجود والسماء

لا الحبر .. لادمي .. يضيء في النوى
أرتـــد في الســنين
أصـارع الزمـــان
طفولتي تجيء
وترسل السؤال
كصرخـــة الرهان

ويضيق بالنهار ويحب الليل لانه يحمل اليه أطياف أهله وبذلك يعاكس جده امرأ القيس الذى ضاق بالليل واعتبره حيوانا خرافيا لا رأس له ولا ذنب :

الليل عرس ثوبه الثلوج
ومهره .. من وردة تضوع

ونراه يركض باتجاه المستقبل لانه يحقق له الاماني وتستيقظ ذاكرته ويتجه الى قلق البشر ، والعضلة البشرية تتمثل في الحياة اللغز النها حياة فارغة والمساء الماطر مقترن بحادثة غريزية فالمطر لم يعد يحمل اليه الحبيبة لذلك أصيب بخيبة أمل واحباط ويعلم بعودة الحبيبة مستفقرة نادمـــة وهذا الموقف شبيه الى حد ما بالموقـــف الكللي في الشعر القديم .. وهذا الموقف يشبه موقف روميو دون جوليت أو عاشق ما كانت له أبدا معشوقة وبعد صحوة يبدأ البكاء مع ما فات :

فأصحو وتأتي الي المواعيد خضرا
وأنظر خلفي .. أعد السنين
وأبكي .. وأبكـــي
ولا مـــن شــفاء

ولكنه يعود ليتفاءل في قصيدته (دروب الصباح) عندما يخرج من الازمة النفسية الحالكة ، فالدنيا كلها مسافرة في الصباح وهذه اللفظة ذات نفس (شابي) نسبة الى أبي القاسم الشابي في أغانيه الصباحية فالوجود عنده غمامة حب وكأنه يحاول تطبيق المبدأ الديكارتي (أنا أحب اذاً أنا موجود) فالحياة كلها طموح والنهار جميل يكشف عن شفافية العالم وصفائه (الوجود .. الحياة النهار) فهذا الثالوث مبرر وجوده وميلادا لكلمة لديه واحساسه بشعوره شفاء ((عش بالشعور للشعور فانما تحت دنياك عواطف وشعور) وتجاوزا يعتبر أن البشر كلهم يحبون الحياة وتناقضها ولكن :

لاني احب الوجود .. الحياة .. النهار
ستبقى الحروف تضج بروحى

الغربة الحضارية والحس القومي :

يحاول الشاعر احمددوغان أن يستوحي الماضي لمحاصرة اللخطة الراهنة وقصيدته (قراءة في أبجدية قلعة حلب) تعبير عن ضياع حضارى وقلق حضارى وغربة حضارية ونراه يقف من هذه القلعة موقفا ايجابيا فهو ليس بالانسحابي ولا بالموقف الطللي بل ينحني من هذه القلعة موقفا ايجابيا بل ينحني احتراما وتقديرا واعجابا وكأننا نراه يسائل القلعة ويحادثها (هل أتتك الاخبار يا متنبي ؟) ويحاول قراءة سطور التاريخ لان القلعة كتاب مفتوح وهي شاهد قائم على التاريخ العربي والسورى على السواء وهي بمثابة أية الشرق (لدى الشاعر طبعا) وهذا التاريخ الحي النابض الذى يفرض حضوره لم تبنه قبيلة من الجن ولم يكن في يوم من الايام خرافة بل واقع وشاهد على نشاط الانسان في تلك البقعة :

فأرى الروم .. الفرس .. تتار الشرق
الكل غـــزاة
وتظل المئذنة تكبر

وتغبط نفسها بان ابنتها الجميلة والذكية قد انتقت لنفسها احمل واغنى شاب في القرية . . وهذا نادرا ما تفوز به صبية فقيرة مثل سيفدا . . وقالت :

" كازالباشكا " لنفسها : انه ليس جميلا وغنيا فقط بل هو شاب محب للعمل . . وليس لابيه - اي ليورتالان - غير صبيين وبنت . . وبامكانه ان يرتب لهم حياة رغيدة . . فقد بنى لصهره بيتا ، واشترى له دكانا ، وان كل مابقي لديه ، وهو كثير ، وكثير جدا ، هو لابنيه "ستويكو" و " اليكسي . . " . . واضافت كازالباشكا قائلة لنفسها : المهم ان يتم كل شيء على مايرام . . وابتسمت واقتربت من النافذة لتحدق من جديد باتجاه البئر . . وهي تفكر بمدى السعادة الغامرة التي تشعر بها ابنتها سيفدا بقرب الحبيب . . لكن افكارا سوداء مالبثت ان دارت في ذهنها للحظة . . وكانت تتلخص في خوفها من ان يكون . . " ستويكو "ودون ان تدري ، من ذلك النوع من الشباب الذين يتعرفون الى الفتيات ، ويستمتعون معهن ثم ينسحبون . . ويظل العار لاصقا بسمعة الصبايا . . وتذكرت " كازالباشكا " فورا ان كل اهل القرية انما يعرفون جيدا ان " ستويكو " يحب ابنتها . . بيد انها عادت لتطمئن نفسها بان " ستويكو" شاب ليس كالاخرين . . ولكن ؟ . . هل سيتحاوب ابوه " يورتالان " معه عندما سيعرض عليه رغبته في الزواج من سيفدا .

فجأة . . استيقظ كازالباشيف - زوج كازالباشكا - من نومه . . ليسأل زوجته :

- اراك لا تنامين ؟
- نم انت . . ماذا تريد مني ؟ .
- هل ذهب ام لا ؟ . .
- كلا . . انهما قرب البئر . .
- اسمعي يا امرأة . . انا شخصيا لايمكن ان استمر في السكوت عما يحصل . . انا لايعجبني هذا . .
- اسكت . . اسكت . . الافضل لك ان تنام . . هذا ليس شغلك . .
- اقول لك ان مايحدث لايعجبني ابدا . . هيا اخرجي و اطرديه . .
- اطرده . . ؟ ولماذا يارجل ؟ . . هل انت محنون ؟ . . اطرده لانه يحب ابنتنا . .
- اسمعي يا امرأة . . يجب الا ننسى ان هذا الولد هو ابن يورتالان . . وانت لا تعرفين اباه مثلما اعرفه انا . .
- اعرفه . . اعرفه . . لكنه ليس هو الذي سيتزوج ابنتنا . .
- حسنا . . اريد ان اسألك . . لماذالم يزوج يورتالان ابنته لشاب من القرية رغم ان الكثيرين قد احبوها . . وفضل ان يزوجها لرجل من قرية " اينوفو" ؟
- وما علاقة هذا بموضوع ابنتنا ؟ . .
- اريد ان اقول . .
- انت لا تعرف ان تقول شيئا . . هيا . ثم . . نم . . وتأكد ان " ستويكو " سيكون صهرك المحبب . . وانه سيحبر اهله ان رفضوا على احترامنا ومحبتنا . . ماذا تريد اكثر . . البارحة رأتني زوجة " يورتالان " في الكرم . وسألتني عنك . . وطلبت منى ان ابلغك سلامها وسلام زوجها . . المهم الان - ودائما - هو الا تتصرف تصرفات حمقاء . .
- الخلاصة . . علقلك لا يعحبني . .
- اسكت . . اسكت . . افضل لك . .

وتقدمت " كازالباشكا " من سرير زوجها ، وشدت اللحاف الى فوق رأسه ،

فما كان منه الا ان سكت ونام من جديد .

عاودت " كازالباشكا " .. تحركها في الغرفة . . وهي حائرة فيما يمكن ان تفعله من احل ان تسلم على ستويكو . . اذ كانت قد بدأت تشعر نحوه بحب حقيقي . . وكانت تبرر ذلك لنفسها بقولها : ولم لا ؟ . . اليس ستويكو صهري ؟ . . ان الصهر كالابن . . وعندما تأكدت من نوم زوجها اذ سمعت شخيره ، خرجت الى الحديقة ، وتقدمت بضع خطوات نحو البئر . . ثم سعلت . . واقتربت . . وما كان منها الا رفعت صوتها قائلة :

- سيفدا . . سيفدا . . اما تزالين هنا

انتفض " ستويكو " مذعورا ، لكن حبيبته لفت ساعدها على عنقه ، ووشوشته قائلة :

- امي تعلم انك هنا . . وهي تحبك . . ربما جاءت لتسلم عليك . . وابتدرت " كازالباشكا " حبيب ابنتها بالتحية :

- مساء الخير يا ابني . . كيف حالك يا ستويكو ؟ . . وكيف هو حال ابيك وأمك ؟ .. اهلا واسهلا . .

اجابها ستويكو بصوت منخفض :

- شكرا يا خالتي . . شكرا .. انهم بخير

- وكيف هو حال اخيك الصغير ؟ . . يكبر . . اليس كذلك . . ؟

واختك هل انجبت ولدا ؟ . . قبل ايام قالت لي امك انها ستصبح جدة . . هل اصبحت ام لا ؟ . .

- لم يحدث بعد . . يا خالتي . .

والتفتت " كازالباشكا " الى ابنتها وقالت :

- وانت ياسيفدا كيف تستقبلين ضيفا غاليا مثل ستويكو هنا قرب البئر . . هيا اصطحبيه الى غرفة الضيوف . هيا . . ولا تنسي ان تشعلي المصباح . . علبة الكبريت على الشباك . .

- اعرف يا امي اعرف . . قالت سيفدا ذلك . . ثم التفتت الى ستويكو .. وقالت له . . هيا يا ستويكو الى الغرفة ، اما قلت لك ان امي تحبك ، فها هي ذي تريد ان تكرمك . . هيا . .

نهض " ستويكو " مترددا ، بيد ان سيفدا سحبته من يده الى غرفة الضيوف ، ولما دخلاها ، اشعلت المصباح ، واغلقت النوافذ ، فتلفت " ستويكو " يمعن النظر في جدران الغرفة المكسوة بالصور المؤطرة بأخشاب رصف عليها المحار ، فقالت له سيفدا انها من صنع اخيها الكبير . . ثم رأى لوحة تمثل مشهدا من الحرب البلقانية . . واعلمته " سيفدا " ان اباها يحب تلك الصورة كثيرا ، لان ابن عم له كان قد اشترك في تلك الحرب، ولما جلس " ستويكو " على الاريكة القديمة شعر بسعادة غامرة ، رغم رائحة (النفتلين) التي كانت تملأ الغرفة .. فانتبهت سيفدا الى ذلك وقالت له :

- لاشك في ان رائحة النفتلين قد ازعجتك . . هنا في هذه الغرفة تخفظ امي كل ثيابنا الجديدة التي ترشها بالنفتلين . . مالعمل . . ؟

- انا سعيد يا سيفدا مادمت معي في غرفة واحدة . .

اسدلت " سيفدا " التي كانت قد أغلقت النوافذ الستائر المطرزة ،فابدى " ستويكو " اعجابه بالستائر ، وتذكرت " سيفدا " . . كيف ان اباها كان قد رفض ان يشتريها ، وكيف ان امها باعت دون ان تعلمه قليلا من الصوف والسمن لتؤمن تكاليف تلك الستائر . . اما " ستويكو " فاستغرب كيف ان اهله ، وهم

الاغنياء ، لم يشتروا لغرفة ضيوفهم مثل تلك الستائر الجميلة ، وتذكرت "سيفدا" المخدات المطرزة هي الاخرى والمطبقة بعضها فوق بعض في الخزانة ، فاخرجتها ووضعتها في زاوية الغرفة ، ثم اخذت ستويكو من يده واجلسته في ذلك المكان المريح ، وانحنت عليه ، وطبعَت قبلة طويلة على جبهته ، فتأملها بشوق عارم ، وشدها لتجلس بالقرب منه . . وهو يقول :

- هذا ماكنت احلم به . .
- وأهلك هل هم موافقون ؟
- ولم لا ؟ . . انهم سيخطبون لي الفتاة التي ارغب . .
- ياليت الامر بهذه البساطة . .
- هكذا هو يا سيفدا . .

وتبادل الحبيبان قبلات كانت تزداد حرارة واحدة تلو الاخرى الى ان سمعا فجأة صوت سعال ام " سيفدا " . . قرب باب الغرفة . . فما كان من ستويكو الا ان نهض قائلا :

- يجب ان اذهب . .
- مازال الوقت مبكرا . .
- لا . . لا . . ليس مبكرا . .
- اجل انه مبكر . . وستبقى هنا . .

وأجلست " سيفدا " من جديد حبيبها " ستويكو " في الزاوية بين المخدات المطرزة ، وجلست قربه تتأمله بلهفة . .

سعلت ام سيفدا " مرة ثانية امام باب الغرفة ، ثم نادت ابنتها قائلة : سيفدا . . تعالي . .

نهضت " سيفدا " مسرعة نحو امها . . ثم عادت تحمل صينية من النحاس ووضعتها على الارض امام ستويكو الذي تبين فيها صحنا من البيض المقلي وآخر من اللحم المقدد وثالث من مخلل الملفوف بالاضافة الى الخبز والبصل الاخضر ورائب اللبن . . وما هي الا لحظات حتى دخلت " كازالباشكا " الى الغرفة مبتسمة وقالت لستويكو :

- قلت في نفسي . . لعله قد اتى من العمل مباشرة . . فاعددت لك هذه الاشياء البسيطة . .
- عفوا يا خالتي . . لماذا اتعبت نفسك . . ؟
- اتعبت نفسي ؟ . . وماذا فعلت كي اتعب نفسي ؟ . . تفضل يا ابني . . . تفضل . . لا تخجلني . . هذا ما استطعته

تقدم " ستويكو " نحو المائدة وكان جائعا حقا ، فتأملته ام سيفدا وهو يأكل بشهية ، وهي تردد بعض عبارات الترحيب والتشجيع ، ثم انسلت من الغرفة لتترك سيفدا ، وستويكو وحدهما . . فما كان من سيفدا الا ان قالت لحبيبها :

- غدا . . في الليل . . انا التي ستعد لك المائدة . .
- ماذا ستعدين لي ؟ . .
- تعال . . وسترى . .
- سوف آتي . .
- حاول ان تأتي مبكرا قليلا . .
- سأحاول . .

وهكذا تأخر " ستويكو " في تلك الليلة عن العودة الى بيته . . و دون ان يعرف كم هي الساعة . . بل انه كان لا يريد ان يعرف ذلك . .

كان " يورتالان " من ذلك النوع من الرجال الذين لا يؤجلون عمل اليوم الى الغد ، وكان في المواسم لايكف عن التجول في حقوله ، وهو يراقب سير العمل فيها ، ويرسم الخطط من اجل انجاز المهام في مواعيدها من اجل تأمين افضل المحاصيل

وأفرها واكثرها مردودا ، وحتى اذا ما حدث ان شعر بتوعك في صحته ، فانه كان يتحامل على نفسه ، ويتابع اهتماماته بدأبه المعهود ، فلا يشكو ولا يأوي الى الفراش ٠٠ وعندها كانت تقول له زوجته :

ـ استرح ٠٠ يا رجل ٠٠ استرح قليلا ٠٠ فانه كان يرد عليها قائلا ٠

ـ هنالك وقت للراحة ٠٠ ووقت راحتي انا هو القبر ٠٠

كان " يورتالان " ينهض مبكرا جدا ، قبل دجاجاته نفسها ، ليرقب بزوغ الفجر ، ويتأكد من الطقس ، واذا ماحس بانه سيء ، ولا يساعد على العمل،فانه كان يشتم كل شيء يصادفه بصوت منخفض ، حتى لا تسمعه السماء ، وتصب جام غضبها على زرعه ٠٠ اذ كان يؤمن بأن التأفف حرام ٠٠ وان على الانسان ان يتحلى بالصبر ٠٠ ويتقبل الامور على علاتها بصدر رحب ٠٠

كان " يورتالان " عندما يستيقظ مبكرا يدخن اربع او خمس سيكارات في مدى نصف ساعة ، ثم يبدأ بالسعال الحاد والعميق الذي ما ان كانت تسمعه جارته التي كان قد ابتلاها الله بزوج كسول ، حتى كانت تصرخ في زوجها :

ـ هيا ٠٠ انهض ٠٠ هيا ٠٠ اما سمعت صوت سعال " يورتالان " ٠٠ ؟ ليس من حقك بعد الان ان تشكو من الفقر ٠٠ ان كسلك هذا هو السبب ٠٠ ان "يورتالان "، اكبر منك بعشرين سنة وهو بهذا النشاط ٠٠ الا تخجل من نفسك ٠٠

كان " يورتالان " مثالا للريفي ض الدؤوب الذي لا يعرف من الحياة سوى حب عمله وارضه ٠٠ كما كان يكره الكسل والكسالى ٠٠ ويهزأ بهم ٠٠ فهو الذي كان يوقظ زوجته مع بزوغ الفحر قائلا :

ـ هيا ٠٠ هيا انهضي ٠٠ اما كفاك كل هذا الشخير ؟ ٠٠

وعندماكانتالمسكينة تسمعه كانت تهب بسرعة ، لانه تعرف جيدا انها ان لم تفعل ، فانه سيغضب كثيرا ، ولم يكن يورتالان ليتحرك من امامها الا عندما يتأكد من استيقاظها ، ثم يتوجه بعد ذلك ليوقظ ابنه " ستويكو " ثم الإجير٠٠ ولكنه في ذلك اليوم لم يفعل ذلك ، بل توجه الى الغرفة التي ينام فيها ابنه ٠٠ وسعل مرة ٠٠ ومرتين ٠٠ وثلاث مرات ٠٠ ثم قال :

ـ هيا انهض يا ولد ٠٠

كان الولد ـ اي ستويكو ـ يغبط في نوم عميق ولذيذ ، اذ ان تأخره في بيت حبيبته " سيفدا " كان قد أسعده وأتعبه في آن واحد ٠٠ لذا، فانه كان يتخيل نفسه ، وهوتحت اللحاف، انه لايزال في تلك الغرفة ذات الستائر الحميلة التي تفوح منها رائحة "النفتلين" ٠٠ ويحلم بوجه حبيبته الرائع ،ويتصور كفيها على خديه ، ويتذكر وهو بين النوم واليقظة لذة القبلات الطويلة التي فاز بها في تلك السهرة الرائعة٠٠ لذا لم يكن ليسمع سعال ابيه ٠٠ ولا صوته الغاضب وهو يردد عبارة : انهض يا ولد، ٠٠ وعندما طال بيورتالان الانتظار ، مد قدمه ، وركل ستويكو ، وكرر بصوته الاجش للمرة الثالثة : هيا انهض يا ولد ٠٠ ٠ وفتح " ستويكو " عينيه ، ليرى وجه ابيه المتجهم ، بيد ان النوم مالبث ان شده من جديد الى دفء فراشه ، فغطى وجهه باللحاف ، فلم يتمالك الاب نفسه فانحنى ليرفع اللحاف عن ابنه بسرعة ، وهو يقول: كفاك نوما ايها الارعن ٠٠اقول لك انهض ٠٠ ليس من شاب ٠٠ ويستحي من نفسه ٠٠

يمكن ان ينام حتى هذا الوقت .. ان اشغالنا كثيرة .. قم وانجزها .. ثم نم كما تريد ..

نهض ستويكو من فراشه صامتا ، واتجه صوب البئر ، بينما كان والده يلاحقه بكلمات التأنيب الجارحة :

- هل سمعت ؟

- سمعت .!!

- اليوم ستذهب لمساعدة الاجير "ديمتر".. ولكن اياك ان تضيع الوقت معه بالثرثرة .. يجب ان تشتغلا .. هل فهمت ؟ ..

- فهمت .!!

اكتفى يورتالان بهذا القدر من توبيخ ابنه ستويكو .. ثم مضى يتفقد مافي اطراف باحة داره الواسعة من ارزاق ومحاصيل ، الى ان توقف امام اغمار القمح اليابسة المكدسة بعضها فوق بعض الى علو يقارب السطح .. وهز رأسه متألما .. اذ كان يخشى عليها التلف .

وعاد لينادي ابنه قائلا :

- تعال الى هنا ..

اسرع " ستويكو " ووقف امام والده صامتا بانتظار الاوامر ، فسأله يورتالان :

- متى سندرس هذه الحنطة ؟

- الدراسة مشغولة .. والدراسة بالدور .. ورقمنا ١٢٦ ..

- ما العمل اذن ؟

- ليس من طريقة يا ابي ..

هز يورتالان رأسه بتوده وقال :

- بل هنالك طريقة .. هي ان نشتري دراسة ..

- ولم لا ايها الصبي ؟ .. يجب ان نفكر .. يجب ان نتدبر امرنا .. واذا وجدنا ان قدرتنا ان نفعل ذلك .. فلم التقصير؟

قال يورتالان ذلك ، ثم ترك ابنه عند اغمار السنابل ، ومضى باتجاه الاصطبل ، وهو يفكر بامكانية شراء دراسة خاصة به . وقال في سره ، ان ثمنها نصف مليون ليفا .. هذا مبلغ ليس بالقليل على كل حال .. ولكن ليس المبلغ هو المشكلة .. سوف آخذ قرضا صغيرا من البنك .. انما المشكلة فيمن يمكن ان يشتغل عليها ، ويتحمل مسؤوليتها .

كان يورتالان يخاف من هذه المسألة بل كان بطبعه لايحب الالات المعقدة .. كان يطلق عليها اسم " اعمال شيطانية " .. وكان يورتالان لايحب الميكانيكيين ايضا ، وقد تعود ان يلقبهم باللصوص والملاعين والابالسة .. والا يثق بهم ابدا .. وان ينظر اليهم كأناس من عالم آخر غير عالم الريف الذي عرفه من الصغر .. فقال في سره : ان بامكانهم ان يخدعونني دائما .. وكان سبب اعتقاده هذا أنه كان قد رأى الميكانيكيين اكثر من مرة ، وهم تحت الالات يفحصونها ، ثم ينهضون ليقولوا لاصحابها اشياء غير مفهومة .. صحيح انهم كانوا يتكلمون بالبلغارية ، لكنه ليس من احد في القرية ليستطيع ان يحزر مايقولونه ..

وكان من عادة يورتالان عندما كانت تخطر في رأسه فكرة ما ان يقلبها على كافة الاوجه ، وقد خطر له بالنسبة لموضوع " الدرّاسة " ان يرسل ابنه " ستويكو " الى ورشة ما في المدينة كي يتعلم الميكانيك قليلا ، كي يستطيع في حالة شرائه للدرّاسة ان يعتمد عليه الى حد ما .. صحيح انه قد يضطر احيانا الى استدعاء الميكانيكيين في حالة توقف الدراسة عن العمل كليا ، لكن ابنه سيفهم على الاقل مايقولونه ، وسيكتشف

غشهم .. لكن يورتالان مالبث ان استبعد هذه الفكرة من رأسه ، وذلك عندما تذكر ان ستويكو يشبهه الى حد بعيد في عدم تلاؤمه مع الالات ، وقال يورتالان لنفسه : انه لايصلح .. ثم كرر هذه العبارة اكثر من مرة .. الى ان قفزت الى رأسه من جديد فكرة اخرى .. الا وهي ارسال ابنه الصغير " اليكسي " .. الى معهد من معاهد الميكانيك ، ليدرس تفاصيل الالات وجزئياتها ، فيعود مهندسا او شبه مهندس ، فيستطيع الاعتماد عليه تماما في كل مايخص الدرّاسة التي يجب ان يشتريها .. وهز يورتالان رأسه راضيا وقال : هذا امر ممكن .. لكننا يجب ان تنتظر قليلا .. صحيح ان الولد فهيم ، لكنه لا يزال صغيرا ..

منذ ذلك اليوم بدأت فكرة شراء " الدرّاسة " تشغل يورتالان بصورة دائمة وتستولي على كل اهتمامه ، فتارة كان يتصور نفسه وقد ملكها ، وتارة اخرى يحسب كم في امكانه ان يربح منها ان هو استغلها في انجاز اعمال الاخرين ، ليشعر في كل الحالات بنشوة عارمة ،وكان يلذ له بصورة خاصة ان يفكر بكل ذلك في اوقات الصباح الباكر ، عندما كان يقوم بجولته اليومية المعتادة في صحن داره الواسعة ، وعندما كانت القرية تستيقظ من النوم ، وينصت " يورتالان " الى ضجة الحياة من حوله اذ تختلط اصوات الرجال بصرير العربات وثغاء النعاج وصياح الديكة ، كان يزداد نشاطاً وتفاؤلاً ، فيتبادل الحديث مع زوجته ، التي كانت كثيرا ما تنتهره قائلة :

- الا تمل الكلام .. ؟ اريد ان التفت الى اعمالي .. هيا اخرج ..
- والى اين تريدينني ان اخرج .. ؟
- لقد سأل عنك " ستويكو " ..
- ستويكو ؟ .. وهل اصبحت انا تحت امر ستويكو ليسأل عني ؟ ..
- لاتبدأ بمهاجمته .. ليس بين شباب القرية شاب في مثل سنه .. وفي مثل اخلاقه .
- وهل يستطيع ان يكون الا كذلك ؟

في احدى المرات وبينما كان الزوجان يتبادلان مثل هذه الاحاديث الصباحية ، دخل الى دارهم الفلاح " ديلتشو " ابن عازف القرية " آدم سير - تلييف " .. والقى التحية .. فسأله يورتالان بلهجة لا تخلو من مداعبة :

- مالذي اتى بك الينا في هذا الصباح الجميل ؟
- عندي رجاء يا عم يورتالان .. رجاء بسيط ..
- وما هو ؟
- ان تعطيني الف ليفا ..
- الف ليفا ؟ .. ماذا تقول ؟ .
- نعم ياعم يورتالان .. البارحة في المساء .. نطح الثور ابني الصغير " كوليو " في صدره ، فنادينا "ديمو" ليعالجه ، فقال لي لابد من ان آخذه الى الطبيب في " بلوفديف " فماذا يمكنني ان افعل ؟ ..
- الف ليفا في هذه الازمة ؟ .. هل انا بنك ؟
- انا اعلم انك لست بنكا .. ولكن باستطاعتك ان تعطيني هذا المبلغ ..
- لماذا لا تأخذه من الجمعية التعاونية ؟
- ابني يموت يا عم يورتالان .. وتحدثني انت عن الجمعية التعاونية ؟ .. وانت تعلم حق العلم انها لن تؤمن لي مثل هذا المبلغ ؟

امتعض يورتالان كثيرا ، ولوى شفته ، وقال لديلتشو :

- اسمع ياديلتشو . كنت قد اودعت عندي زوجتي مبلغا من المال . . دعني ادخل لاسألها عما اذا كانت قد تصرفت به ام لا . .

اتجه يورتالان الى الغرفة ،بينما جلس " ديلتشو " على كرسي صغير يتأمل مشيته وظهره المحدودب ، ويقول في سره : انت ليس معك ؟ . . اذا كنت انت لاتملك الف ليفا . . فمن الذي يملك مثل هذا المبلغ ؟ . . الحمعية التعاونية التي استموها لتخديرنا يا اغنياء القرية ؟ .

تأخر " يورتالان " كثيرا ، اوربط كان " ديلتشو " هو الذي شعر هذا الشعور ، ذلك لان المسكين كان على احر من الحمر ، فانهم قد نقلوا ابنه المصاب " كوليو " الى مركز الناحية . . وكان عليه ان يأخذ الدراهم ويلحق بهم . .

- هذه هي الالف ليفا التي طلبتها . . .

ولكن اسمع يا " ديلتشو " . . يجب ان تعيدها حال عودتك من البلدة . .

- طبعاً . . طبعا . .

- اسمع . . ستكون عندي " درّاسة "قريبا وستساعدني اليس كذلك ؟ . .

- طبعا . . طبعا . . ودس الفلاح المسكين المبلغ في جيبه واطلق ساقية للريح ليلحق بابنه المصاب .

كانت الشمس قد بدأت تسلط أشعتها القوية على القرية .. وكانت كلما صعدت اكثر باتجاه قبة السماء الزرقاء .. كان قاطفوالذرة يزدادون شعورا بحرارتها . .ويحسون كما لو ان الارضتحت اقدامهم انما تشكو مزيدا من الحاجة الى المطر او الرطوبة .. فيتأملونها بتفهم وحنان . . ثم يرسلون ابصارهم الى جبال الرودوي البعيدة والبنفسجية كما لو انهم يتوسلون اليها بأن تبعث اليهم بقليل من الغيوم التي تتلفع بها . .

اما يورتالان فانه كان لايزال في طريقه الى الحقل ، وكان كلما شاهد عربة محملة بعرانيس الذرة عائدة الى القرية يلوح بيده ويحيى اصحابها قائلا :

- اتمنى لكم التوفيق . .

اما اذا كان صاحبالعربة من المقربين الى قلبه ، فكان يستوقفها ليسأله

- كيف هو المحصول ؟

وعندما وصل " يورتالان " الى منطقة حقول الذرة ، كان العرق يتصبب من حسمه ، فأوى الى جدار قرب نبع اسمه " أمين آغا " .. ، ولف سيجارة من تبغ علبته القديمة .. وتلفت حوله ليسمع نقيق ضفدعة تقفز في وحل النبع الفائض. ثم فكر بقصة تسمية ذلك النبع باسم نبع امين ، ولم يكن (امين) هذا سوى تركي رحل عن المنطقة اثناء الحرب الصربية - البلغارية عام ١٨٨٥ ..مخلفا اسمه الذي اطلق على النبع . . ذلك لانه هوالذي كان قد حفره واعتنى به زمنا ، وسوره باحجار يتجمع الماء خلفها ، بيد ان مختارا جاهلا ازاح تلك السور اثناء الحرب الاوربية . .ولم يهتم بالنبع منذ ذلك الحين احد . . الى ان غاض وتحول الى مستنقع صغير تنق فيه الضفادع . . وعندما استبد بيورتالان العطش ، فحاول ان يشرب قليلا من الماء ، فتقززت نفسه ولم يستطع . . اذ كان الماء راكدا وملوثا .. فما كان منه الا ان ارسل شتيمة بذيئة . . ونهض ليسيرباتجاه حقله ..

عندما وصل يورتالان الى الحقل ، وقف يتأمل العرانيس الكبيرة ، وشعر بنشوة عارمة ، فأخرج منديله من جيبه ليمسح به عرقه ، وهو يقدر ان محصوله سيكون اكثر من خمسة آلاف كيلو غرام من الذرة ، وان كدسة من الليفات ، قد تتجاوز الثلاثين الفا ، سوف تضاف الى كنزه من الاوراق النقدية ، واتخذ قرارا فوريا بالا يبيع المحصول الا عندما ترتفع اسعاره ، وعاد يورتالان ليتوغل في الحقل ، وهو يزيح العرانيس العالية بيديه معتزا ومداعبا بقوله :

- دعيني امر . . لا تكوني غليظة الى هذا الحد . .

تذكر يورتالان فجأة) كيف كان قد اشترى ذلك الحقل عندما عاد من الحرب ، حيث كان قد قضى ثلاث سنوات شاقة فعلا ، لم يصدق خلالها انه سينجو بنفسه ، لكنه ما ان عاد حتى بدأوا يتحدثون معه في القرية عن ضرورة تفكيره بالاستقرار وعن شراء قطعة من الارض ، والبحث عن زوجه ، وحدث ان كان في زيارة لدار القس " بوب تودوروف " ، وكان هنالك ابن القس الذي كان قد قرر بيع ارضه والرحيل الى المدينة ، فما كان من يورتالان الان دفع له عشرين الف ليفا واخذ الارض ، رغم انها كانت مهجورة ، فقد كانت عائلة القس تودوروف لا تعتني بارضها ، فما كان من يورتالان الا ان شمر عن ساعد الجد واستصلح الارض وسمدها وزرعها وهو يردد ، المثل القائل من يفلح يحصد . . ومد يورتالان يده الى جيبه ، واخرج علبة دخانه ، ولف سيجارة واشعلها ، وهو يشعر بنشوة عارمة من منظر عرانيس الذرة الممتد الى بعيد بعيد . . ثم تلاحقت في رأسه ذكريات كثيرة وعزيزة . .

وفكر بالحياة والايام . . بالحرب والسلم . . باصدقائه الكسالى الذين لم يستطيعوا ان يفعلوا شيئا ، وباصدقائه المجدين المحبين للعمل ، لكن يورتالان عندما تأكد ان محصوله رائع ، قرر ان يتوجه الى حقله الاخر الابعد ، وكان مزروعا بالذرة ايضا ، لكن ذلك الحقل الاخر لم يكن قد اشتراه بدراهمه ، بل ورثه مع اخيه عن والدهما ، فحث يورتالان السير باتجاهه ، وما هي الا نصف ساعة من الزمن حتى بلغه ، وتوغل بين العرانيس يتفحصها ومر في منطقة لم تعجبه عرانيسها ، اذ كانت اقل اكتنازا بالبذور ، فقال بصوت ساخط : اللعنة عليك يا ستويكو . . انك لم تحرث هذا المكان جيدا . .

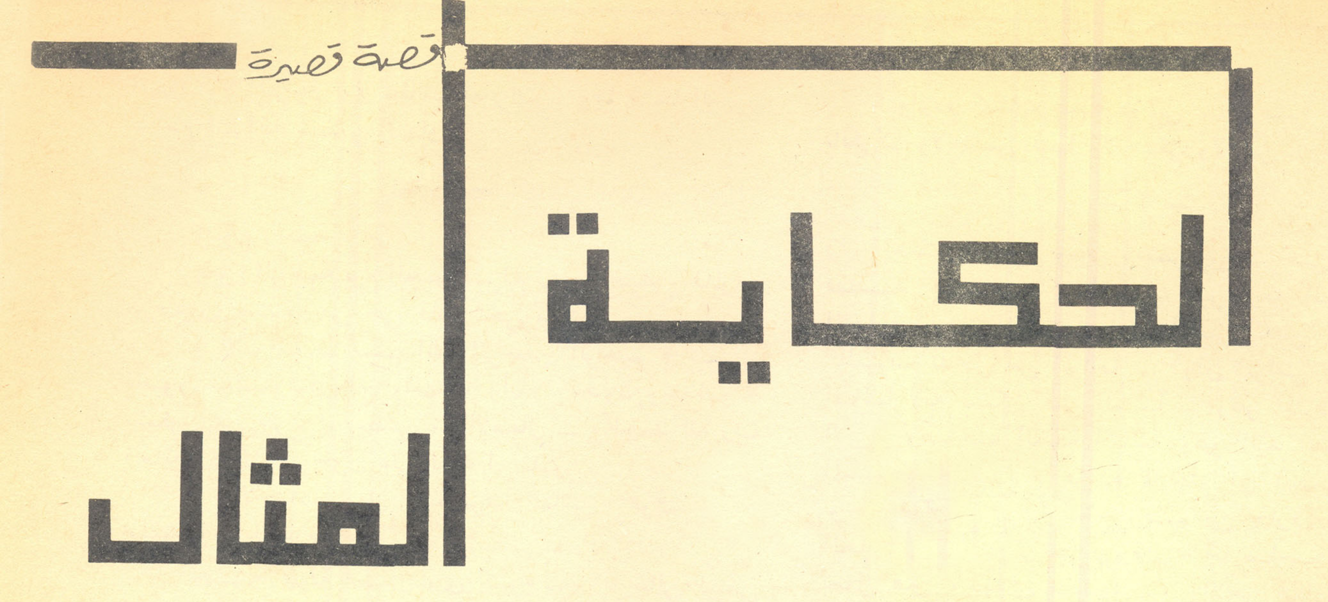
كان يورتالان عندما يتجول في حقوله ، يشعر انه في بيته ، فقد كان يحب تلك الاراضي التي اصبح جزءا منها لذا فقد كان يهتم بكل شيء فيها . . لكنه عندما مر بمحاذاة حقل " بيشين " الرائع و (بيشين) هذا احد منافسيه في القرية قال بلهجة لا تخلو من حسد :

- بيشين . . ايها العفريت . . ستكون سعيدا بمحصولك . .

وتابع " يورتالان " سيره ، ثم توقف قرب حقل صغير آخر . . وفغر فمه دهشة امام بعض العرانيس الكبيرة بشكل ملفت للنظر . . وقال :

- هكذا يكون المحصول . . لكنه مالبث ان طمأن نفسه بقوله . .

على كل حال فانني الاول بين اهل القرية بالنسبة لمحصول الذرة في هذا الموسم. صحيح انني قد لاحظت بعض العرانيس اكبر من عرانيسي قليلا . . لكن حقولي كثيفة . . ومساحاتها اكبر . . ان شاء "بيشين " ام ابى .



يحيى الطاهر عبدالله

يحكى ان فطنا من زماننا – وكان فقيرا أقرع بغير سكن – اختار صحبة الاموات : فهناك يقتات من خبز الصدقات .. وهناك مسكنه – طال عمره أم قصر .

ولما وجد الفقير الاقرع كل المقابر المسقوفة مشغولة بالاحياء طرد الكلب الضال الاجرب واحتل مكانه : حفرة بعين ضيقة لمت عظام ميت .

– الميت قليل الشأن لاريب

قالها ، وكشح التراب الملوث بعلة الكلب خارج الحفرة وكذا عظام الميت النكرة – بينما الكلب الضال ينبح ولا يقدم على الفعل .

شرق الفقير بعقله الفطن وغرب :

● الناس مراتب والحيوان مراتب والقبور مراتب والاحياء في القبور مراتب – فهل تبقى المراتب بعد الممات يانكرة ؟ ، خبرنى يا من عرفت مرتبتك بين الموتى ؟.

● انسان وحيوان ، رجل وكلب ، أقرع وأجرب ، ضال أعجمي وضال بعقل ، فما قيمة العقل يا أجرب ؟ ، وانت – هل عندك الجواب يا أقرع ؟

● ما الذي اضناهما وعذبهما وسهدهما واقامهما واقعدهما في الدنيا ؟

● كيال الدنيا ظالم عادل يكيل بمكيالين ، لماذا ؟ ، لا سلم ولا دام عيشه :

وصر الفقير الاقرع الفطن ما اهتدى اليه ودسه في ركن قصى من واعيته – حتى لا يتهم هو العارف بزمانه العسكري – بالكفر او الشغب ، وتوسد ذراعيه ورقد داخل حفرة القبر – وكان الكلب الضال الاجرب قد سبقه ورقد فوق كوم التراب والعظم خارج الحفرة .

راى الاقرع يبول ويشرب بوله ، وراى الاقرع يتخلص من حاجته ويأكلها ، فهب الاقرع من نومه هلوعا ببدن بارد والايام قلب الصيف .

قال « الخير في العتمة .. والله ستار .. وعصيان العبد عقوبته السجن او الاعدام وانهمك في الفعل ، وما ان تخلص من ذلك الذي اهتدى اليه ومحاه من واعيته – حتى احس بالامن والامان وراحة السلام وريح السلام الرخاء وطعم السلام الحلو .

ومد يديه برفق وحب – وحمل الكلب الاجرب بين ذراعيه وانزله الى الحفرة ، وناما بواعية بيضاء لا تعرف

الحقد ولا الفروق ولا تطالب بميزات ، وما فتحا العيون مع اشراقة شمس النهار .

— ٢ —

اليوم رحمة :
ويوم الرحمة يوم الجميع — الموتى والاحياء . فالموتى يرحمون بصدقة من حي قادر لحي محتاج .
(الاموات — بسم الله الرحمن الرحيم) ببطن القبور : ابناء وازواج وامهات واباء وجدود وجدات لا يشكون من جوع او عطش . والاطفال — والحمد لله رب العالمين — لا يصرخون على لعبة او ثدى .
(والاحياء — قل اعوذ برب الناس) فوق القبور مشتبكون بالصوت :
حسنة قليلة تمنع بلوى كبيرة .. يا غالي ليتنى انا .. بيب بيب .. يازينة الشباب .. بيب .. اعمى وكسيح .. الم نشرح لك صدرك .. انا لا اطلب مكرمة من ام عجرمة .. لله يامحسنين .. بيب بيب .. فتنى للهوان يارجلى .. بيب .. الف لام ميم ذلك الكتاب لا ريب فيه .

(والاحياء — قل اعوذ برب الفلق من شر ما خلق)

- نسوة : باكيات ومولولات ونائحات ولاطمات خدود .
- ورجال : في الحزن اجلد وفي مقام الرغبة اصرح
- وامراة : في كل احوالها — بخصر وثديين ورموش وكفل
- وبائع مزامير : غريب . جاء من مكان بعيد — بيد وجيب ومزمار وفم وقلب ، زمر للاشواق والتلامس والتماحك وللمواعيد وللقاء العيون وللصد بالوجه والقبول بالقفا (فيوم الرحمة يوم الذكور والاناث)
- وصغار : منقسمون — جماعة فرحة تنفخ في المزامير وجماعة فراحة تتطلع الى النافخين في المزامير . وجماعة سعيدة تحجل وجماعة سعيدة تصفق ؛ وقلة سعيدة تنفض التراب عن الحذاء الجديد وتبتعد عن مواطن الزحام كى لا يتلوث الثوب الجديد
- وقراء قرآن ومتسولة اصحاب عاهات وحراس مقابر — في يوم مشهود : لان ايام العام طويلة ممدودة وايام الرحمة قليلة معدودة .
- وفقير فطن لم يقبع بحفرته — بانتظار اهل ميت نكرة لا خير فيهم ولا خير عندهم — بل جال بالمقابر وعرض عاهته حتى غاب الشفق وحلت العتمة فعاد الى حفرته وقد نال من حسنات المحسنين: ما يملأ كفيه مرتين تمرا .. وستة قروش .. وكعكتين بالسمن واللبن والسمسم والسكر .. واربع كعكات بسكر ولبن .. وعشر كعكات ملونة بالكركم ولا سمن فيها ولا سكر ولا لبن .

— ٣ —

مكث بالحفرة يومين وبعض يوم — حتى فرغ زاده . فقصد جاره ساكن اقرب قبر وبعد السلام تم التعارف ودار الكلام . وفهم الفقير الفطن : ان القبور كالبيوت تدخل من ابوابها .. وان الراس الكبير اسمه الباشا لانه يسكن قبر الباشا — وهو الناطق بالكلمة الاولى وصاحب الكلمة الثالثة وهو اليد القابضة واليد المبسوطة ، وارتاح فؤاده لما علم ان الجميع يرحبون بوجوده بينهم — فتشجع وطلب من جاره طعاما . لكن الجار اعتذر بلغة لا تجرح وقال « انا صاحب مرض اقوم بعمل هين وجهدى محدود .. والاجر هنا بقدر العمل .. اذهب الى الباشا واطلب العمل تجده .. كل شيء عندنا يا اقرع مقدر ومحسوب لا حاسد ولا محسود والعمل قسمة بيننا والنظام مطلب مطلوب وهو والحمد لله موجود فلا تخف ولا تحزن وتوكل على الله وخد بعضك وتوجه الى الباشا تجد خلاصك وتعرف رجلك من راسك

— ٤ —

في قبر كانه القصر — بل هو القصر : به المكيف والثلاجة والتليفزيون والراديو .. ارضه مفروشة وسقفه مدهون — يقعد الباشا على كرسيه وسط صحبه وخدمه عزيز الاهل والنفس بوجه مبتسم وبدن عفى يلفه الحرير المنقوش .

قال الباشا : اهلا بك يا اقرع
رد الاقرع : اهلا بك يا باشا

قال الباشا : البصير قرا كتابك .. فنحن نحتاط ولا نخاف .. انظر يا اقرع وادار الباشا قرص دولاب فانار وجه الدولاب وتحركت فوقه الصور — وراى الاقرع .. وهو ينتف ما تحت ابطيه ويكوره ويرمي به للكلب الاجرب ممازحا ..
اوقف الباشا تتابع الصور — وقال : خير الكلام القصير .. لم تكن عينا للنهاب — فلا تكن ... عد الى حفرتك وكن الوحش يحرس صيده .. الصيف هين والشتاء ستغلبه بلبس الوبر وان جاء المطر فسقف جارك — الذي يحرسك وتحرسه — يحميك .. كن العين والاذن ولا تكن اللسان ولا تسأل وتجلد على السهر بالافيون .. وطعامك سيأتيك في المواقيت وكل رغائبك مجابة .. العمل يا اقرع العمل .. انصرف ياخازن .

— ٥ —

نعم هو خازن على حفرة ظاهرها التراب والفطم وباطنها : الحشيش والافيون والكوكايين والهيروين وابرة الماكس وبرشامة الهلواس .

- ٦ -

الخازن الاقرع - الذي طرد الاجرب وتنكر لصحبته - ببدن عفى وعقل فطن عفى ، وهو في وحدته وسهره وصمته وبفضل مصه للافيون (قعر بئر) ملم بما يخفيه الحكام في جرارهم :

- الحشاش عسكرى البلاد يقبض على الامور بيد من حديد تضرب بالحديد وتكوى بالحديد (وتقتل بالظن) - ورجال المقابر تحت امرة الباشا رجاله.

- والنهاب الذي عاش تحت ظل الحشاش في امان - وقد أجتمع له المال وكثر الاعوان وانتشروا في البلاد كالجراد الحاصد - يجهر بالعصيان وقد يتمكن من كرسى البلاد في القريب

- والقواد يحيا تحت ظل الحشاش ويعلن له الولاء في كل آن - الا انه خبيث الطبع لاعب على الحبلين .

وزن الاقرع الفطن بميزان الصائغ قوة المتعاركين وبان له أن كفة النهاب راجحة - وفي هذا زوال مكانة الرأس الكبير او قطع الرأس الكبير وحبس الاتباع الا من أعلن الولاء في حينه .

وتلاعبت بالاقرع الفطن عواصف الفكر :

ان أعلنت الولاء للنهاب - بعد فلاحه - نفدت بالروح والجسد . ولو انتكست فعلة النهاب هانت روحي وتعذب جسدي ، وفي التمهل روية مرذولة من كافة الاطراف ، حسدك الزمان ، أم الجبن يا أقرع طعام الخاملين والقانعين والمهانين الى يوم الدين ؟ . وفي المغامرة خسارة للقمة مضمونة وبدن برأس أقرع أو كسب لما تحت بدن الاقرع من ثروة وقد تفوز بلقب الباشا - الذي يراهن على العسكري الحشاش - لما افتدى قومك سكان المقابر .. ومن ثم أفوز بقصره وما حوى من نفيس واجلس حريمه على حجرى .. والايام دولة والمال دولة بين الناس - ومن عزيز .. قامر يا أقرع .. قامر

- ٧ -

الباشا - الذي يدس رأسه الاقرع - منذ زمان - تحت عمامة كبيرة من حرير الهند بعدما يدهنها بمراهم فرنساوية لطيفة الرائحة ذات أثر طيب على قروحه - خلع عمته وطواها ودسها في صندوق مطعم بالصدف والعاج واحتفظ بها كتذكار لجهاده الشاق . وتقدم من لابس الحلة حاسر الرس - ليلبس قلنسوة والى البلاد . بعد ذاك عاد واستوى على سرير العرش محروساً بالجند .

واستمع الى لابس الحلة وهو يتلو مراسم التتويج وتعاليم التاج من كتاب :

« يا اقرع ابن حابس يا اقرع

انك ان يصرع أخوك تصرع »

- ما اليانكى ؟

بعض الجهال تمكن منهم الظن الفاسد « اليانكى نظير الموت : كلاهما يسلبك ظلك » وهذا - والله - حق ناقص : فاليانكى بظل كبير (وما الموت هكذا) واليانكى يحجب بظله الكبير كل ماعداه من ظلال - الا ان الظلال تبقى ظلالا في ظل واحد كبير (وما هكذا يفعل الموت) . (اليانكى منا وفينا وبنا) لماذا كان رجال اليانكى اقوياء ؟

المختارون قلة .. أصحاب مال .. والمال عافية. والمنتخبون أهل بصيرة وهم أوفر عددا من المختارين . الا ان المختار هو الذي يقرأ فصيلة دم المنتخب ويحله بدم من نوع دمه حتى يصح دم المنتخب (فالعقل السليم في البدن السليم)

فروق أخرى بين المختار والمنتخب ؟

المختار مختار والمنتخب منتخب - والفروق بينة لكل ذى عينين ! ! الا ان في الزيادة افادة : لا الهراوة بمبة النترون ؟ ولا الثلاجة قله ؟ - وما بين اليانكى ومعاونيه ؟

الكل واحد ، والواحد كل . وفي البعد عن الصواب صواب ، وفي القرب من الصواب صواب . والا قدام خير من الخوف ، ومن اغتنم جنى عديد الفوائد . واليك تلك الحكاية (المثال) :

يحكى أن فطنا من زماننا - وكان فقيرا أقرع بغير سكن - اختار صحبة الاموات : فهناك مسكنه وهناك يقتات من خبز الصدقات وهناك قد يهتدي للذى أضناه وعذبه وسهده وأقامه وأقعده من أمر تلك الدنيا التي تكيل بمكيالين ......

ديسمبر ١٩٧٨

غداً تمرّين

علي عبد حسن

لا الدرب يغمر خطوي ، لا الأزاهير … ولا تنقر شباكي العصافير

نفرت حتى القوافي فهي شاردة … عني وما زارني في وحشتي النور

لملمت عطرك من بيتي أترحل عن … هذى الشفاه أتنساها المزامير

هنا بقايا على وجهي على شفتي … فلملميها تشهتها القوارير

ولمي الزفرات النار .. وارتحلي … والوشوشات اللظى لا الذنب مغفور

ولمي عن جفوني ما سكبت فلن … تطيل غيبتها هذى الشحارير

غدا بصدرك تهوى الف عاصفة … لن تستكين بتهديك الاعاصير

غدا تمرين قربي نصف غامزة … جفنيك والهدب بالاحلام مخمور

وتزرغين بقايا الطيب باكية … على يدى وتقولين : المقادير

لاترجعي • ودعينا في تغربنا … فقد يحن الى المهجور .. مهجور

هنا وقفت هنا حدثت وارتعشت … كاللحن في الشفة الكسلى التعابير

هنا ضفرنا حكايانا وعذبنا … من الحكايات منشور ومضفور

وقام في مقلتينا سرها وغفا … على الضلوع الثكالى فهو مقبور

دعي بواكير حب ، وارحلي وخذي … كل الذى شئت ولتبق البواكير

دعي بقية عطر منك وارتحلي … غدا تحن الى الكرم النواطير

القول .. والحرف .. والصوت

قال الشيخ جلال الدين الرومي:

« ما الحرف فتتفكر فيه ، انه الشوك فى جدار البستان انى امحق القول والحرف والصوت ، لأناجيك بغير هذه الثلاث » .

ص 21 « فصول من المثنوى »

لاَ تُفكرْ فَفِي رُؤيتِي يَطْمئِنُّ المُفكرُ
مِنْ فَائِضِ النُّورِ
حتّى احتِراقِ الأَساطِيرِ
ما شَغلَ البَالَ غيْرُ السُّؤالْ
سُدىً .مَا رأينَا
وفَوْقَ الخيَالِ الذى نمَقتهُ أيادي الخيَالْ
تمَاكنَني القوْلُ لَم يَستطِعْ جَامُ حرْفي
بأنْ يَسعَ القوْلَ
يكبُرُ فِينَا السُّؤالُ بحجْمِ الجوَابْ
وَ امَّا يُنوِّرُ هذَا الظّلاَمُ اللّيَالي

يُشرَّعُ بَابٌ ويُغلَقُ بَابْ
بعْضُ مَا يَهبُ الحُبُ أجْمَلُ في العيْنْ
مِنْ زمَنٍ يتَسرَّبُ مِنْ قبضَةِ الرِّيحِ
أحْلَى مِنَ الصّلوَاتِ العتيقَهْ
بعْضُ مَا يَهبُ الحُبُّ سِرٌّ
ومِنْ أينَ لِي أنْ أطيقَهْ
بُحَّ صَوْتِي وَأرْضُ الشّذَا أكثرَتْ منْ ندَائي
هَلْ تُرانِي أنا الصّوْتُ
أمْ ذابَ صَوْتِي
وَالآخرينَ وَهبْتُ بُكَائِي
هَلمُّوا فَهذِي خُمُورِي
وَهذَا بَخُورِي
وَهذَا غنَائِي
سوَاسِيَةٌ نحْنُ فِي كلِّ شَيْءٍ
سِوَى الحُزْنِ فَهوَ لنَا بالوَلاَءِ

محي الدين خريف